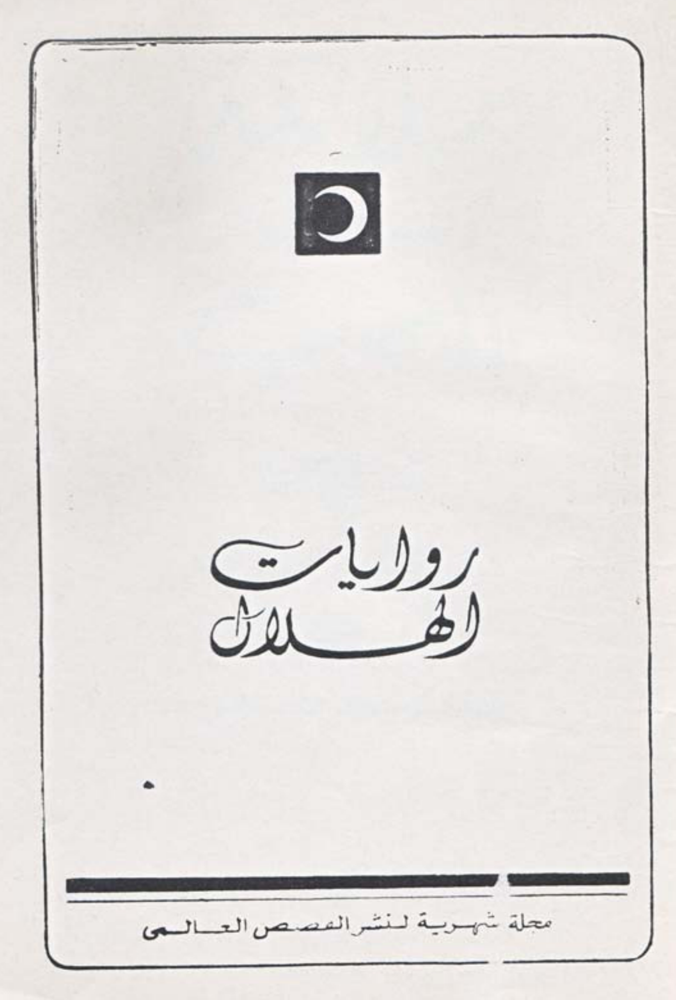
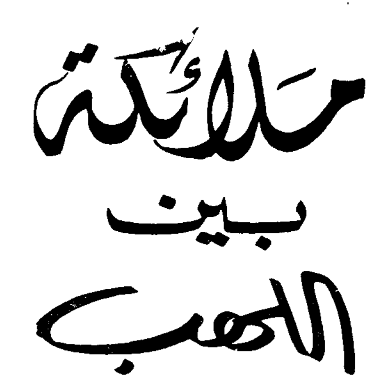
روايات الهلال

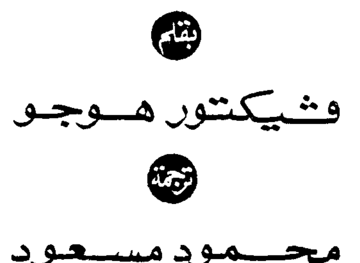
ملائكة بين اللهب

فيكتور هوجو




روايات الهلال
مجلة شهرية لنشر القصص العالمي





دار الهلال

مقدمة

قلما اجتمع لاديب فرنسي مثل ما اجتمع لفكتور هوجو من صفات أهلته للصدارة فى ميدان الادب والفكر واظفرته بالخلود فى طليعة النوامخ الذين يعتز بهم الأدب العالمى : فهو قصاص . وشاعر ، وفيلسوف ، ضرب بسهم وافر فى كل مجال من هذه المجالات بعشرات الروايات والمجموعات الشعرية والبحوث الفلسفية التى تفتقت عنها عبقريته الفذة خلال القرن التاسع عشر ، فكان أديب فرنسا الأشهر بلا منازع .

وفى هذه الرواية التى أصدرها عام ١٨٧٤ تجلت عبقريته كقصاص وشاعر على أروعها . فالقصاص هنا أزجى لنا مادة روائية محبوكة الأطراف ، قوية العقدة ، فريدة الأحداث ، جمع نسيجها من تاريخ الثورة الفرنسية بعد أربع سنوات من قيامها حين كانت فى مهب الأعاصير الداخلية والخارجية تتألب عليها فلول الملكيين فى الداخل متحالفة مع الجيوش الأوروبية الغازية التى كانت تسعى لسحق الثورة درءا لانتشارها فى ربوع أوروبا . ومع ان أحداث هذ الثورة كانت مادة خصبة لكثير من الروائيين الفرنسيين وغيرهم من مشاهير الكتاب العالميين ، فان فكتور هوجو قد جلا لنا هذه الحقبة العصيبة من تاريخها فى مزاج رائع جمع فيه بين الوقائع القومية والأحداث الفردية على نحو فذ فيه التفاعل الوثيق بين الأمة والأفراد وفيه الصراع العنيف بين المبادىء والقيم وبين المنازع الذاتية والأهواء النفسية فى حبكة قصصية باهرة ومؤثرة تجردت من رتابة السرد وجعلت منها دراما ملحمية من طراز تلك الملاحم الكبرى التى لا تجود بها سوى عبقريات فحول الأدب والفكر الانسانى .

واذا كان فكتور هوجو القصاص قد بلغ القمة فى هذه الحبكة المزدوجة روائيا وتاريخيا ، فان فكتور هوجو الشاعر قد جاوز هذه القمة بل تناهى الى ذرى اسمى وأسنى فى تناوله للأحداث وعرضه

لشتى المواقف بأحاسيس الشاعر الملهم النافذ الى اغوار النفس البشرية والمتأدى الى السرائر والفاقة لتفاعلاتها فى سموها ونبالتها او هويها وصغارها ، فى ايثارها وتضحياتها او انانيتهـا ونكولها ـ حتى لا تملك وأنت تتابع هـذه التفاعلات جميعا وتلابس احتدامها وعنفوانها الا ان تتأثر بها هذا التأثر الغلاب الذى يهز النفس من الأعماق ويجرى الدموع فى المآقى فى احساس فياض بالمشـاركة العاطفية التاهرة .

انظر الىّ الشاعر وهو يسوق باحساسه المرهف ومشـــاعره الانسانية الأصيلة تلك الصورة المؤثرة فى غمار الحـرب الوحشية الدائرة بين اجناد الجمهورية (الزرق) وبين اشياع الملكية (البيض) التى تسيل فيها الدماء أنهارا ويعم القتل والـدمار كل شىء ، حين تحيط شرذمة من الأولين بأرملة ذات اطفال ثلاثة كانوا يهيمون على وجوههم حيارى مشدوهين جائعين ظامئين ليس لهم طعام الا الحشائش والبذور ولا سقف يؤيهم سوى اديم السماء ، وحين يدنو قائدهم وينحنى فوق الطفلة الرضيعة ويتفرس فيها ، فتتخلى عن ثدى أمها متطلعة اليه بعينيها الزرقاوين الصافيتين ثم ينفرج ثغرها الغض عن ابتسامة ملائكية ، فاذا الجاويش الوالغ فى الدماء تنحدر دمعة كبيرة الحجم فـــوق وجنته وتستقر فوق شاربه الضخم ، واذا هو يقرر ان (تتبنى) الفرقة هؤلاء الأطفال الثلاثة الأيتام .

***

وفكتور هوجو الشاعر هو الذى يدير ذلك الحوار الانسانى الرائع بين النبيل المتصدى لقيادة قوى (البيض) وبين المتسول الذى يخف لانقاذه من مطارديه (الزرق) رغم المكافأة الجزيلة التى رصدت ثمنا لراسه ، اذ يقول المتسول فى سياق الحـوار تفسيرا لهـذه البادرة : (قلت لنفسى يا مولاى : هذا مخلوق اشد بؤسا منى . اننى املك ان اعيش وان أتنفس ، اما هو فلا . نحن اخوان فى البلاء يا مولاى . فأنا اطلب القـوت ، وانت تطلب الحيـاة . نحن متسولان) . واذ يمضى النبيل فى سبر اغوار المتسول مشيرا الى المكافأة التى يمكن ان يفوز بها بالابلاغ عنه ، يقول المتسول ببساطة : (هذا ما فكرت فيه بالضبط . عندما رايتك وحيدا مطاردا قلت لنفسى : هذا رجل يستطيع الانسان بتسليمه ان يفتنى مدى الحيـاة ... فلنسرع اذن باخفـائه . مالى يا مولاى وهـذه الحرب التى تدور من حولى ؟ انها تحدث فى محيط لا يهمنى . هناك مسائل اهم منها

تتجدد : فالشمس تشرق وتغرب ، والقمر يستدير ويتضاءل ... هذه هى المسائل التى تعنينى ... وتتكلم يا مولاى عن الفقر والغنى ؟ انه موضوع مخيف . انه أس البلاء والكوارث . الفقراء يلتمسون الغنى . والأغنياء لا يحبون ان يفتقروا . أحسب ان هذا هو تلخيص موضوع الصراع الأكبر فى الحياة ، وان كنت لا اشغل نفسى بهذه المسائل ولا ادس انفى فيها) .

***

ويدير فكتور هوجو الشاعر حوارا انسانيا آخر بين هذا المتسول ذاته وبين الأرملة ام الأطفال الثلاثة عندما ينقذها وهى بين الموت والحياة بعد ان علم ان النبيل قائد (البيض) امر باطلاق الرصاص عليها وانتزع رجاله اطفالها الثلاثة وحملوها الى حيث لا تعلم الأم المنكودة . ان المتسول ليحزن اشد الحزن حتى يناجى نفسه : (ان مثل هذا النبيل يعرف الانسان وقت الضيق ، فاذا ذهب عنه تنكر له وادار ظهره . ليتنى لم انقذه . ان الخير قد ينقلب شرا احيانا ، فان الذى ينقذ الذئب يقضى على الغنم) . ويبلغ الحزن والتندم من المتسول مداه تأثرا بحالة الأم التى فجعت بفقد اطفالهـا الثلاثة خصوصا وهى تندبهم بهذه الكلمات المؤثرة : (لم يكن لى فى الدنيا سواهم . ما انا بدون أولادى ؟ اننى اشعر بالحوادث تجرى من حولى ولـكننى لا افهمها . انهم قتلوا زوجى واطلقوا الرصاص على ... لـكننى لا افهم شيئا) . وتتجلى للمتسول حقيقة المأساة فى بشاعتها فيفكر : كانت التعسة اما ، فلم تعـد كذلك . كانت تحنـو على اطفالها ، ففقدت هذه الصفة ، ولكنها لا تستطيع ان تذعن للأمر الواقع . انها تفكر فى طفلتها الرضيعة التى كانت تمتص حياتها ، وكانت مع ذلك سعيدة قريرة العين بها ، لانها من حياتها تمدها بحياة جديدة . يا لعاطفة الأمومة المعقدة التى لا يمكن فهمها على ضوء العقل والمنطق ، لكنها غريزة بصيرة لا تضل ولا تخطىء) .

***

ولا يمل فكتور هوجو الشـاعر من التمسك بأهـداب الرحمـة والانسانية حتى فى الحرب المضطرمة بين (الزرق) و (البيض) . استمع اليه فى هذا الحوار الدائر بين قائد (الزرق) الذى يقوم مذهبه على ضرب العدو بلا رحمة فى الميدان والعفو عنه بعد المعركة ، وبين مندوب (لجنة الأمن العام) فى باريس المكلف بالاشراف على سير الحرب والذى يعتنق مذهب القسوة والارهاب :

(المندوب — لم اطلقت سرا راهبات الدير ؟
القائد — انا لا اشهر الحرب على النساء .
المندوب — المراة الواحدة تفوق فى مقتها عشرة رجال . لم رفضت ان تقدم الى المحكمة الثورية أولئك القسس الشيوخ المتعصبين بعد ان أسرتهم ؟
القائد — لأننى لا اشهر الحرب على الشيوخ .
المندوب — ان أرباب الشعور البيضاء أقدر على اذكاء روح التمرد والعصيان . لم لم تأمر باعدام الفلاحين الأسرى الثلثمائة الذين اخذتهم فى المعركة الاخيرة ؟
القائد — لأن القائد الملكى عفا عن أسرى الجمهوريين ، فاردت ان يعرف أن الجمهورية تعفو عن أسرى الملكيين .
المندوب — كن على حذر ايها القائد . ان عام ٩٣ هو ادق مرحلة فى تاريخ الثورة . واخطر ما يؤذى الجمهورية هو هذه الرحمة التى تحرص عليها .
القائد — اننى احذرك بدورى حتى لا توصم الجمهورية بالارهاب والطغيان .. ان الحرية والمساواة والاخاء هى المبادىء الخالدة التى تقوم عليها الطمأنينة ويستتب بها السلام . فلم نطبعها بطابع العنف والبطش ؟ لا يحتاج الانسان الى فعل الشر توسلا الى الخير . ولا يفسد مبادىء السلام والتسامح غير القسوة والتنكيل — لنكن فى القتال اعداء اعدائنا . أما بعد النصر فلنكن اخوانا) .

***

ويمضى فكتور هوجو الشاعر فى سوق الصور الحافلة بالمشاعر الانسانية . فقد ادت فظائع الحرب الاهلية الى الزج بالاطفال الأبرياء فى برج منعزل واتخاذهم رهائن مستهدفين للنسف ، ويصف الشاعر حالهم رغم الهلاك المتربص بهم هذا الوصف المؤثر : (استيقظ الاطفال الثلاثة ، وفتحت الطفلة الصغرى عينيها اولا . ان استيقاظ الاطفال كتفتح الأزهار فى اكمامها الفضة . وبرغم حالتهم الزرية وأسمالهم البالية كانت تحوطهم هالة من النور ، ومظهرهم يثير الحب والانعطاف ... وفى ختام نهارهم هذا الحافل انحدرت الشمس فوق الأفق ولامست حافته ، وساد سكون عذب يملأ النفوس راحة وطمأنينة ، وتجمع هؤلاء الأطفال كتلة واحدة نصف عارية كأنهم صور من كيوبيد . كانوا صورة مجسمة للنقاء والطهر ، ولم تتجاوز أعمارهم مجتمعة تسعة أعوام . وكانت الابتسامات العذبة المنطبعة

على شفاههم صدى للأحلام السماوية التى يسبحون فيها . وربما كأن الملائكة فى هذا الوقت تهمس فى آذانهم) .

***

ان هؤلاء الملائكة هم محور القصة عند فكتور هوجو الشاعر ، فهو يصورهم لنا مرة اخيرة وقد عثرت عليهم الأم التاعسة آخر الأمر فى اتون من اللهب وقد عجز جيش (الزرق) المنتصر عن انقاذهم من الموت حرقا فى البرج المنعزل . ولم يكن ثمة من يستطيع انقاذهم سوى النبيل قائد (البيض) . فهل يعمد الى انتشالهم من براثن الموت فيقع فى الأسر مرة أخرى أم يمضى الى غايته لجمع شمل قواته المدحورة واستئناف القتال ؟ لعمرى ان فكتور هوجو القصاص والشاعر والفيلسوف قد بلغ غاية الاعجاز فى عرضه لهذه المواقف الحاسمة واستخلاصه للصور الحافلة بالمشاعر الجياشة والمواطن التى يحتدم فيها الصراع بين العقل والعاطفة وبين التعلق بالحياة والتضحية بها تلبية للمنازع الانسانية النبيلة . ان هذا الصراع العقلى والعاطفى لا يلبث ان ينتقل الى طرف آخر من اطراف المعركة هو قائد (الزرق) الذى يمتحن كذلك بموقف عسير اشد العسر هو البت فى مصير ذلك الذى ضرب أروع مثال فى البطولة والاستجابة للدوافع الانسانية . فهل يقتله أو يحرره ؟ فى الأولى عذاب لنفسه ، وفى الثانية تنكر لواجبه . فهل يستجيب لنداء العاطفة أم يغلب داعى العقل ؟ ان تصرف القائد الجمهورى الشاب أفضى به الى مثول أمام المحكمة الثورية برئاسة مندوب (لجنة الأمن العام) الذى كان له بمثابة الاب الروحى بعد ان تعهده بالرعاية منذ صغره وانزله من نفسه منزلة الابن . وفى محاكمة رهيبة تصارعت فيها المبادىء والمثل واشتد فيها النضال بين نوازع العاطفة ودواعى العقل وموجبات القانون والنظام يسدل الستار على مأساة مزدوجة تحبس الأنفاس فى الصدور وتذكى أشد اللوعة ، ولكنه رغم ذلك ختام ملحمى لا يجليه سوى فكتور هوجو القصاص والشاعر والفيلسوف ، صاحب الشوامخ ، واديب الانسانيات الاكبر .

فهى اذن تحفة رائعة نهديها الى شباب هذا الجيل ، اذكاء لروح الاطلاع على الآداب العالمية الكلاسيكية فى نفوسهم ، وحفزا لهم على الارتشاف من منابعها الفزيرة .

محمود مسعود

الفصل الأول

في غابة سودراى

فى عام ١٧٩٣ كان الصراع على أشده بين جيوش الجمهورية والملكية فى فرنسا ، وكان سيل المتطوعين من انصار الجمهورية يتدفق تباعا من باريس الى مقاطعتى (بريتانى) و (فنديه) حيث رابطت القوات الملكية . وصدرت أوامر (مجلس الأمة) فى باريس الى المتطوعين أن يقتلوا أعـداءهم وان يبيدوهم عن آخرهم بلا أدنى رحمة . على انه ما كاد ينتهى شهر مايو من هذا العام حتى خسر الجمهوريون من متطوعى باريس وحدها ثمانية آلاف مقاتل ...

فى أواخر مايو المذكور طوحت الحرب بفرقة من الجند الى غابة « سودراى » فى مقاطعة (بريتانى) وأصبح عدد جنود هذه الفرقة لا يتجاوز الثلثمائة بعد ان التهمت المعارك المريرة معظمهم ..

كانت غابة سودراى كثيفة ذات أشجار فارعة واغصان متشابكة لا تكاد تنفذ منها أشـــعة الشمس . ولم تكن بها طرق معبدة ولا مسالك معروفة . وقد اشتهرت بالمعارك الطاحنة التى نشبت فى ارجائها بين ابناء الوطن الواحد ، ولذلك كان جنـود الفرقة المشار اليها يتقدمون فى ظلامها فى تمام الحـذر واليقظة ، وهم يتوقعون بين لحظة وأخرى ان يقعوا فى كمين اعده لهم اعداؤهم .

تقدم جنود الاستطلاع بقيادة جاويش وساروا فى المقدمة يستكشفون الطريق . ورافقتهم امراة معـــروفة باسم (الزميلة) .. فقد استحدثت باريس فى ذلك العهد تقليدا جديدا اباح للنساء مرافقة جيوش المتطوعين فى ساحات القتـال لحث الرجال وامدادهم بمـا يحتاجون اليه من المشروبات .

وفيما كان هؤلاء الجنود يتقدمون ، وقفوا فجاة منتفضين ، فقد

سمعوا صوتا خافتا صادرا من بين الأشجار ، وراوا بعض الاغصان تتحرك حركة يسيرة لا تكاد ترى . وما هى الا دقيقة حتى أحاطوا بتلك البقعة ، وصوبوا بنادقهم اليها ، ووضعوا أصابعهم على الزناد منتظرين اشارة من الجاويش باطلاق النار ..

على أن هذا الاستعداد لم يمنع (الزميلة) من دس رأسها فى فرجة بين الأغصان ، وقبل أن يصـدر الجاويش امره صاحت المراة : مهلا !

ثم التفتت الى الجنود قائلة : لا تطلقوا النار ايها الرفاق .

تغلغلت المراة بين الأغصان يتبعها الجنود . فوصلت بعد قليل الى بقعة بين الأشجار تشبه الكهف ، ورأى الجميع امراة جالسة على الارض المكسوة بالعشب ترضع طفلا ، وقد رقد فوق ركبتيها طفلان آخران .

هتفت (الزميلة) : ماذا تفعلين هنا ؟

رفعت المراة راسها ، فاستطردت (الزميلة) بخشونة :

ـ هل جننت حتى تأتى الى هنا ؟ . لو مضت لحظة اخرى لـكنت الآن ممزقة الجسد !

راحت المراة تتطلع فى حيرة وجزع واضـــطراب الى السـحن الوحشية والبنادق المصوبة والحراب المشهرة التى تحيط بها من كل جانب وكأنهـا تحت تأثير كابوس مريع ، ثم استيقظ الطفلان وبكيا ، وقال الأول انه جائع والثانى انه خائف . أما الرضيع فكان منهمكا فى امتصاص ثدييها .

هتف الجاويش حينما رآها عاجزة عن النطق لفرط ارتياعها :

ـ لا تخافى . نحن جنود الفرقة الحمراء . من انت ؟

كانت المراة صغيرة السن ، نحيلة الجسم ، شاحبة اللون ، يكسوها رداء من الصوف ينتهى بغطاء فضفاض على راسها . وكانت عارية الصدر حافية القدمين ، ينزف الدم منهما .

قال الجاويش حينما رأى حالتها وسكوتها : هى متسولة .

وقالت (الزميلة) فى شيء من الرقة : ما اسمك ؟

غمغمت المراة آخر الأمر واجابت متلعثمة : ميشيل فليشار .

ربتت (الزميلة) على رأس الطفل الرضيع بيدها الكبيرة وقالت :

ـ كم عمر هذا الطفل ؟

لم تجب المراة كأنهـا لم تفهم ولمـا كررت (الزميلة) سؤالها اجابت :

— آه ! .. سنة ونصف .
قالت (الزميلة) : هو كبير .. يجب الا يرضع بعد الآن . يجب فطامه . سنعطيه حساء ..
دب الاطمئنان فى نفس المراة .. وذهب الخوف عن الطفلين وجعلا ينظران الى الجنود بفضول .. فقالت الأم :
— هما جائعان ! .. لم يعد بعد عندى لبن .
فهتف الجاويش : سنعطيكم طعاما .. لكن ليس هذا كل شيء .. ما هو رايك السياسى ؟
نظرت اليه المراة دون ان تجيب ، فقال لها :
— هل سمعت سؤالى ؟
اجابت المراة فى تلعثم : ادخلت الدير فى صغرى . لكنى متزوجة ولست راهبة .. وقد علمتنى الراهبات كيف أتكلم الفرنسية .. ثم اشعلت النار فى القرية .. فهربنا بكل سرعة حتى لم اجد وقتا للبس حذائى .
— انى اسالك عن رايك السياسى ؟
— لا أفهم معنى هذا الكلام .
استطرد الجاويش : يوجد جاسوسات بين النساء .. ونحن نحكم عليهن بالموت . تكلمى ! ما هو الحزب الذى تنتمين اليه ؟
كانت المراة تنظر اليه وكانها لا تفهم ما يقول . ولما كرر سؤاله اجابت :
— لا اعرف .
— كيف ذلك ؟ .. الا تعرفين وطنك ؟
— آه .. وطنى ! . نعم .. اعرفه .
— حسنا .. اين هو ؟
فاجابت المراة : مزرعة (سيسوانيار) ، فى جهة (بازى) .
ظهرت على وجه الجاويش دلائل الحيرة .. وفكر قليلا . ثم قال :
— لكن ليس هذا هو الوطن المعروف .
فاجابت المراة : هو وطنى .
ثم استطردت بعد تفكير : فهمت يا سيدى .. أنتم من فرنسا ، اما انا فمن (بريتانى) . وهما جهتان مختلفتان .
فهتف الجاويش : لكنهما فى وطن واحد .
فأجابت المراة : انا من (سيسوانيار) .

فقال الجاويش : ليكن . وهل تنتمى عائلتك الى تلك الجهة ؟
— نعم .
— وما هى مهنتها ؟
— مات أهلى كلهم . ليس لى أهل فى الدنيا .
— لكن لك اقارب .. أو كان لك اقارب . من انت ؟ تكلمى .
ظهرت على وجه المرأة دلائل الحيرة والاضطراب وهى تصغى الى استجواب الجاويش .. ورأت (الزميلة) ضرورة التدخل .. فاخذت تربت بيدها على رءوس الأطفال الثلاثة وقالت : ما اسم الرضيع ؟
هى بنت .
فأجابت الأم : اسمها جورجيت .
والولد الأكبر ؟
— رينيه جان .
— والأصغر ؟
— آلين .
فقالت الزميلة : هم جميعا ظرفاء . يكاد الانسان يحسبهم من ذوى الجاه .
تابع الجاويش استجوابه باصرار ، فقال :
— الى اى حزب تنتمين ؟
— لا اعرف .
— هل انت من الزرق (الجمهوريين) ؟ .. هل انت من البيض (الملكيين) ؟ مع من انت ؟
— انا مع اطفالى .
ساد السكون قليلا .. ثم استأنف الجاويش اسئلته :
— تكلمى عن ابويك .. قولى معلوماتك عنهما .. انا ادعى الجاويش رادوب .. من شارع (كنيسة ميدى) فى باريس .. وقد ولد ابى وامى فى تلك الجهة .. من السهل ان أتكلم عن أبوى .. تكلمى عن ابويك ؟ .. من هما ؟
— اسمهما فليشار .. هذا كل شيء .
— لكن لكل انسان مهنة .. ما هى المهنة التى كان يحترفهــا ابواك ؟
— كانا من العمال .. وكان أبى عاجزا عن العمل .. مقعدا . بسبب الضرب الذى ناله بأمر سيده . سيدنا جميعا (حاكم الاقطاع) ، لأن ابى سرق ارنبا من الغابة .. وهى جريمة عقابها الموت .. لكن

السيد اشفق على ابى ، وامر بضربه مئة جلده .. وبات ابى مقعدا .

جلست الزميلة الى جانب المراة وجذبت الطفل الأكبر الى حجرها فاستسلم لها ، وقالت :

— اسمعى أيتها المراة الطيبة .. ان اطفالك لطفاء .. كل الاطفال كذلك فى الحقيقة .. بامكانى ان أخمن عمر كل منهما .. عمر الاكبر اربع سنوات .. والثانى ثلاث .. والآن .. لا تخافى .. من الواجب أن تنضمى الى الفرقة .. مثلى .. ان اسمى أوزارد .. ووظيفتى هنا تقديم الشراب للجنود اثناء القتال .. ان قدميك تشبهان قدمى .. سأعطيك زوجا من احذيتى .. تعالى معنا .. ان الجنود أناس طيبون .. ستكونين (زميلة) الفرقة الثانية . سأعلمك كيف تقومين بعملك .. وهو سهل جدا .. ستحملين اناء الشراب فى يد وناقوسا فى اليد الثانية .. وتشقين صفوف الجنود بين صوت المدافع ودوى الرصاص ، وتنادين : « من يريد أن يشرب يا أولادى ؟ .. » هذا هو كل عملك .. تعالى معنا .. واذا قتلت تحلين محلى .. لا تخافى .

لم تجب المراة .. فاستأنف الجاويش اسئلته :

— وزوجك يا مدام ؟ .. ماذا يعمل ؟ .. وماذا جرى له ؟

— قتلوه ..

— اين ؟

— فى الغابة ... منذ ثلاثة ايام .

— ومن قتله ؟

— لا اعرف .

— كيف ذلك ؟ لا تعرفين من قتل زوجك !

— لا .

— هل قتله احد الزرق . هل قتله احد البيض ؟

— قتلته رصاصة .

— وماذا كنت تفعلين بعد قتل زوجك ؟

— كنت اهرب مع اطفالى .

— الى اين تذهبين بهم ؟

— انى اسير دائما الى الامام .

— واين تنامون ؟ ..

— على الأرض .

— وماذا تأكلون ؟

— لا شيء .. اعنى بعض الكراز الجاف الباقى من السنة الماضية .. وبعض البذور المتساقطة .

قال الطفل الأكبر : انا جائع .

تناول الجاويش قطعة من الخبز من جيبه وناولها الى الأم . فشطرتها نصفين واعطت كل طفل قطعة .. فجعلا يأكلان بشراهة .

غمغم الجاويش : لم تحتفظ لنفسها بشيء .

فقال احد الجنود : لأنها ليست جائعة .

فقال الجاويش : بل لأنها أم .

واستأنف الجاويش اسئلته : وأنت الآن تحاولين الهرب ؟

— لا يوجد أمامى غير ذلك .

— تهربين فى الحقول ؟ فى أية جهة تصادفك ؟

— انى اجرى بكل قوتى .. ثم أسير .. ثم اسقط على الأرض .

فقالت الزميلة : مسكينة !

واستطردت المراة : الناس يتقاتلون .. هم يتبادلون الرصاص فى كل مكان حولى .. لا اعرف ماذا يريدون .. هم قتلوا زوجى .. وهذا كل ما فهمته .

لطم الجاويش الأرض بقاعدة بندقيته ، وهتف :

— يا لها من حرب وحشية !

وقالت المراة : فى الليلة الماضية نمنا فى (تجويف) .

— انتم الأربعة ؟

— نعم .

فقال الجاويش : اذن نمتم واقفين .

ثم التفت الى الجنود واستطرد : أيها الرفاق .. ما يسميه هؤلاء الفلاحون (بالتجويف) هو جذع شجرة قديم مجوف يندس الانسان فى داخله .. للمياة احكامها . ولا يمكن أن يكون كل الناس من اهل باريس .. ولا شك ان الصغار بكَوا وهم فى داخل الشجرة . وكم يكون عجب الانسان حينما يمر بجانبها ولا يرى شيئا ، ثم يسمع الشجرة تهتف :

— بابا ! ماما !

قالت المراة وهى تتنهد : من حسن الحظ اننا فى الصيف .

ثم جعلت تنظر الى الأرض فى صمت واستسلام ، وقد نمت عيناها عن ابلغ آيات التعاسة والشقاء . والتف الجنود حول هذه الأرملة ذات الأيتام الثلاثة الذين نبذهم العالم وحالفهم البؤس . وكانوا

يهيمون على وجوههم حيارى مشدوهين فى محيط حافل بالمعارك والملاحم ، جائعين ، ظامئين ، ليس لهم طعام الا الحشائش والبذور . ولا سقف يؤويهم سوى أديم السماء .

دنا الجاويش من المراة وانحنى فوق الطفلة الرضيعة وجعل يتفرس فيها . فتخلت الطفلة عن ثدى امها وحولت رأسها بوداعة الى الوجه الضخم المطل عليها بشعره الكثيف الشائك ، وتطلعت اليه بعينيها الزرقاوين الصافيتين ، ثم انفرجت شفتاها الصغيرتان عن ابتسامة ملائكية .

اعتدل الجاويش . فرأى الجميع دمعة كبيرة الحجم تنحدر فوق وجنته وتستقر على شاربه . ورفع الجاويش صوته قائلا :

– أيها الرفاق . ستكون الفرقة ابا . هل أنتم موافقون ؟ سنتبنى هؤلاء الأطفال الثلاثة .

فصاح الجنود : تحيا الجمهورية !

فقال الجاويش وهو يضع يديه على الأم وعلى اطفالها :

– اتفقنا اذن . هؤلاء هم أبناء الفرقة الحمراء ، ابناء الثورة .

وثبت (الزميلة) فرحا . ثم انهمرت دموعها ، وعانقت الأم بحرارة وانفعال .

وردد الجنود هتافاتهم للجمهورية . بينما قال الجاويش للأم :

– تعالى معنا أيتها المواطنة .

الفصل الثانى

السفينة الحربية (كليمور)

– ١ –

انجلترا وفرنسا

فى أصيل اليوم الأول من شهر يونيو سنة ١٧٩٣ ، قبيل الغروب بساعة ، اقلعت سفينة من جزيرة جرسى فى بحر المانش واختفت فى طيات الضباب .

كانت السفينة (كليمور) ذات مظهر خادع . فهى سفينة تجارية فى الظاهر ، لكنها حربية فى الواقع ، فقد كانت تحمل فوق سطحها السفلى بطارية من المدافع الثقيلة مكونة من ثلاثين مدفعا ، وفى هذا ما يدل على سرية المهمة المعهودة الى السفينة (كليمور) .

كانت هذه السفينة تابعة للأسطول الانجليزى ، غير أن ضباطها وبحارتها كانوا جميعا من الفرنسيين الهاربين من وجه الثورة الفرنسية ، ومن الملكيين المخاصين . وهى قطعة من اسطول جرسى الانجليزى ، المعقود لواؤه للأمير الفرنسى دوفرن ، وبأمر هذا الأمير انفصلت (كليمور) عن الأسطول وذهبت فى مهمتها السرية .

حملت السفينة قبل اقلاعها رجلا طويل القامة، متقدم السن، أشيب الشعر ، قوى البنية ، تلوح على وجهه دلائل القسوة والصرامة ، وتنم هيئته عن العزم الراسخ والبأس الشديد . وكان يرتدى تحت عباءته سترة من جلد الماعز موشاة بالحرير من احد وجهيها بينما بقى وجهها الآخر خشنا يعلوه الشعر . وكان ينتعل حذاء طويلا . ومجمل هندامه يدل على انه من فلاحى شمال فرنسا .

ولما صعد هذا الرجل الى سطح السفينة رافقه اللورد بالكاراس حاكم الجزيرة والأمير دوفرن ، وجيلامبر مندوب الأمراء الفرنسيين . وقال اللورد وهو يصافحه : « أتمنى لك التوفيق أيها القائد » .. وقال له الأمير : « الى اللقـــاء يا ابن العم » .. وحيـاه جيلامبر باحترام .

وبعد ساعة من اقـلاع السفينة ذهب جيلامير الى بيته وبعث بالرســـالة التالية الى أحـد الأمراء الفرنسيين فى قصر الدوق يوركشير : ـ

« سيدى ــ تم الرحيل . النجاح محقق . فى ظرف ثمانية أيام سيكون ساحل فرنسا الشمالى الغربى من جرانفيل الى سان مالو نارا مشتعلة » .

وقبل ذلك بأربعـــة أيام ، تلقى ممثل الجمهورية الفرنسية فى جرانفيل الرســالة التالية ، محررة بنفس الخط الذى كتبت به الرسالة السابقة .

« أيها المواطن ــ فى غروب اليوم الأول من شهر يونيو ستقلع السفينة الحربية (كليمور) ومعها مدفعية مخبأة ، بقصد انزال رجل على الساحل الفرنسى ، هذه هى أوصافه .. طويل القامة ، ابيض الشعر ، كبير السن ، يرتدى ملابس الفلاحين ، له أيدى النبلاء .. سأبعث اليك غدا بتفصيلات أوفى .. وسينزل هذا الرجل الى البر فى صباح اليوم التالى .. اخطر الطرادات .. استولوا على السفينة .. اعدموا الرجل بالمقصلة » .

ـ ٢ ـ

الاشراف والدهماء

غربت الشمس وساد الظلام . وأخذت السفينة (كليمور) تشق طريقها بين الأمواج تحت سماء تغطيها السحب ، قاصدة الى شاطىء سان مالو . ومع ان الطريق الذى اختاره قائد الدفة فيليب جاكوى كان طويلا ، الا أنه غير مطروق من الطرادات الفرنسية ، وكان جاكوى يأمل أن يصل الى الساحل الفرنسى عند الفجر اذ استمر اعتدال الرياح .

سار كل شيء على ما يرام .. وقطعت السفينة مرحلة طيبه .. وحوالى الساعة التاســـعة اضطرب الطقس ، وتعـالت الرياح والأمواج ، غير انها كانت محتملة ، لا خطر منها .

كان (الفلاح) يسير ذهابا وايابا فوق سطح السفينة بخطوات ثابتة متزنة رغم اهتزاز السفينة العنيف . ولم يكن يكلم أحدا ، غير انه كان يلقى الى القبطان بين حين وآخر بضع كلمات سريعة موجزة ، فيصغى اليه القبطان باحترام كأنما هو قائد السفينة الفعلى .

وحوالى الساعة العاشرة جاء الـــكونت دى برتوليه القبطـان والشيفالييه فيوفيل الضابط وشيعا (الفلاح) الى غرفته الخاصة ، وهى فى الواقع غرفة القبطـان . وقال (الفــلاح) حينما وقف فى الداخل :

ـ تعلمون أيها السادة اهمية التكتم . لا اريد كلمة واحدة حتى ساعة الانفجار . انتما وحدكما بين الموجودين هنا تعرفان اسمى .

فأجاب برتوليه : سنحمله معنا الى القبر .

فاستطرد (الفلاح) : أما أنا فلن أبوح بهذا الاسم حتى لو واجهت الموت .

ثم اغلق باب الغرفة .

عاد القبطان والضابط الى سطح السفينة واخـذا يسيران جيئة وذهابا ويتبادلان الحديث . فقال برتوليه فى صوت خافت :

ـ سنرى اذا كان ضيفنا قائدا حقا .

فاجاب فيوفيل : هو معـــدود فى الوقت الحالى فى مصـاف الأمراء .. واذا كانت رتبته الحقيقية هى رتبة الماركيز ، فهو أمير فى مقاطعة (بريتانى) .

ـ هل تعتقد انه سيحقق الآمال ؟

ـ بشرط ان يكون قوى الشكيمة .

فقال برتوليه : يعنى (شرس) .

تفرس القبطان والضابط أحدهما فى وجه الآخر ، ثم قال الأخير :

ـ اصبت يا سيدى القبطان .. نريد رجلا شرسا . هذه حرب قاسية لا رحمة فيها ، النصر فيها لمن يريق الدماء بلا حساب . ان الجمهوريين قطعوا رأس الملك لويس السادس عشر . فعلينا ان نقطع اوصالهم ونمزق أجسامهم شر ممزق . نعم . القائد المنشود هـو القائد الصارم الباطش . فى ساحات (انجو) لا يتقدم الجيش تقدما

مذكورا . لأن قوادنا يتسامحون . اما فى ميادين (رينز) و (ماريه) حيث القواد قساة غلاظ فالتقدم ظاهر ملحوظ .

وقبل أن يجيب برتوليه تعالت فجـأة صرخة داوية ، وفى نفس اللحظة سمع الاثنان ضجة مروعة غامضة . وقد صـدرت هـذه الأصوات جميعا من جوف السفينة .

هرع القبطان والضابط الى سـطح السفينة السفلى حيث توجد بطارية المدافع ، لكنهما عجزا عن النزول . فقد كان جنود المدفعية يندفعون صاعدين الى السطح العلوى كالمجانين .

- ٣ -

البلاء الأكبر

انفلت مدفع ضخم من مدافع البطارية فى سطح السفينة السفلى ، يزن عشرة آلاف من الأرطـال ، وانطلق يدوس ويحطم كالوحش الهائج .

وربما كانت هذه الكارثة هى أسوأ وابشع ما يصيب سفينة فى عرض البحر ، وتحت رحمة الرياح .

فان هذه الكتلة الجمادية الهائلة تدور على عجلاتها الأربع بسرعة الكرة ، وتندفع فى جميع الاتجاهات اندفاع الوحش الأعمى ، تقتل وتدوس وتحطم . ان لها ثقل الفيل ، وخفة الفأر ، وحدة الفاس ، واندفاع الموج ، وسرعة البرق ، واطباق القبر . هى بلاء ذريع ينقض ويفتك ولا يبقى على شىء ولا يصده شىء .

كانت غلطة ضابط المدفعية . فقد اهمل تثبيت سلاسل المدفع فى مكانها بالمسامير الغليظة . ولما ارتطمت السفينة بموجة عالية انفلت المدفع من مكانه ، وانطلق حرا . وكان فى سرعة حركاته كقطرة من الماء تتحرك فوق سطح زجاجى .

وفى اللحظة التى أفلت فيها المدفع كان بعض جنود البطـــارية واقفين يباشرون بعض أعمالهم ، فلما تحرك المدفع الجهنمى بحركة السفينة الأولى دهم هؤلاء المساكين وســــحق أربعة منهم بضربة واحدة ، ثم تراجع الى الخلف وانقض على رجـل خامس شطره نصفين ، وعند ذلك ارتفعت تلك الصرخة الداوية التى سمعها القبطان

والضابط . وسرعان ما اندفع الرجال كالمجانين الى السلم ، وأخلى السطح السفلى فى ثوان معدودات ، وتملك المدفع ناصية الميدان ، وناصية السفينة .

ووقف القبطان برتوليه والضابط فيوفيل على رأس السلم ينظران الى السطح السفلى مشدوهين حائرين ، وبعد قليل أحسا برجل يزيحهما من الطريق بكتفه ويهبط السلم .

كان هذا الرجل هو ضيف السفينة .. (الفلاح) .. الذى كان مدار حديثهما منذ قليل ، ولما وصل الى نهاية السلم وقف جامدا فى مكانه .

- ٤ -

صراع رهيب

فى هذا الوقت كان المدفع المخيف قـد أتلف خمسة من مدافع البطارية بضرباته القوية ، واحدث ثغرتين فى جدار السفينة ، ولكن من حسن الحظ انهما فوق سطح المياه ومزقت عجلاته جثث الضحايا شر تمزيق وبعثرت أشلاءهم فى كل مكان ، وتضرجت كافة نواحى السطح بدمائهم فغدا المشهد رهيبا والموقف هائلا يلقيان الرعب فى النفوس .

تمالك القبطان روعه وأصدر الأوامر لرجاله ، فأخذوا يقـذفون فوق السطح كل ما وجدوه من المراتب والوسائد والأكياس والحبال . وكذلك شحنة كبيرة من الأوراق المالية الزائفة التى اعدتها انجلترا خصيصا لترويجها فى فرنسا واعتبرتها وسيلة مشروعة من وسائل الحرب .

القيت هذه الأشياء جميعا فـــوق سطح السفينة السفلى بقصد ايقاف حركة المدفع وشل اندفاعه الجنـــونى ، لكنها القيت اعتباطا ، ولم يجرؤ احد على النزول الى السطح لتنظيم وضعها بشكل مثمر ، وسرعان ما فرقها المدفع الجبار ونثرها فى كل مكان .

كل هذا والمدفع مستمر فى عملية الاتلاف والتدمير . فاتسعت الثغرات التى أحدثها ، وتصدعت الساريات ، واتلفت عشرة مدافع ، واخذ الماء يتسرب الى السفينة . ولو استمر الحال كذلك فان غرق السفينة أمر محقق . فكيف الخلاص من هذا الهلاك ؟

فى هذه اللحظة وثب الى المسرح رجل يحمل فى أحدى يديه قضيبا من الحديد ، وفى اليد الأخرى حبلا ينتهى بأنشوطة .. كان هذا الرجل هو مسبب الكارثة . اى ضابط المدفعية الذى ترتب على اهماله انفلات المدفع من مكانه . وقد أراد ان يتلافى هذه النكبة بعد ان احدثها . ثم ابتدا الصراع الرهيب بين الانسان والجماد .

كتم الجميع انفاسهم جزعا . ولم يكن بينهم من سيطر على اعصابه واحتفظ بهدوئه سوى ذلك الكهل (الفلاح) الواقف عند أسفل السلم ، معرضا مثل ضابط المدفعية للهلاك .

وقف الضابط مادا يديه بالقضيب وبالحبل ، منتظرا دنو المدفع من مكانه .. وسرعان ما انقض المدفع عليـــه كالصاعقة . غير ان الضابط راغ منه بخفة القط ، وتكررت هذه الحركات . واذا كان الضابط لم يسحق تحت عجلات المدفع ، وكان فى كل مرة ينجو منه ، فان السفينة كانت تدفع ثمن هذه الحركات .

وفيما كان الضابط واقفا ينتظر عند نهاية السلم ، قرب الرجل الكهل الذى كان جامدا فى مكانه يراقب ما يجـرى ، اندفع المدفع بحركة فجائية واطبق على الضـــابط كالقضاء العـــاجل ، فصرخ البحارة ، اذ انحصر الضابط فى فراغ محدود .

لكن الكهل وثب وثبة عجيبة ، وتناول أحد اكياس الاوراق المالية الزائفة بسرعة البرق ، ودسه بين عجـلات المدفع مستهدفا بهـذه الحركة للموت .

غير انها كانت حركة بارعة موفقة .. فقد تعثر المدفع فى دورانه . ان حصاة صغيرة قــد توقف اندفاع كتلة ضخمة من الخشب . وسرعان ما انتهز الضابط هذه الفرصة ، ودس القضيب بين قضبان احدى العجـلات الخلفية . فوقف المدفع .. وترنح .. واخـذ الضابط يحرك القضيب حركات قوية متوالية كما يفعل الانسان بآلة رافعة .. وما هى الا لحظـــات حتى انقلب المدفع فى دوى شديد .. فألقى الضابط نفسه فوقه وطوق فوهته بالأنشوطة .

تمت المعجزة .. وتغلبت النملة على الفيل .. وصفق البحارة حماسا واعجابا .. وسرعان ما هبطوا جميعا الى السطح ومعهم السلاسل والحبال وشدوا وثاق المدفع الجبار .

حيا ضابط المدفعية الرجل الكهل ، وقال له :

ــ سيدى .. انت انقذت حياتى .

لكن الكهل عاد الى سابق جموده ، ولم يجب .

الثواب والعقاب

انتصر الانسان على الجماد . لكن المدفع أحرز نصرا آخر . فقد حدثت خمس ثغرات فى جوانب السفينة ، احداهما فى المقدمة . واتلفت ضربات المدفع الجبار عشرين مدفعا . وبقى من البطارية عشرة مدافع فقط صالحة للاستعمال . ثم تبين أن المدفع نفسه اصيب بالعطب . وهكذا كان الباقى تسعة مدافع سليمة .

كان سطح السفينة السفلى مختلطـا كأنه قفص فيـل هائج . واسرع البحارة لنزح المياه التى اخذت تتسرب الى داخل السفينة ، واعادة المدافع السليمة الى مكانها وازالة آثار هذه المعركة المروعة . ومع ان السفينة كانت فى حاجة ماسة الى اطفاء أنوارها حتى تختفى فى الظلام عن أعين الطرادات ، الا ان البحارة اضطروا الى وضع مصـــابيح فى أماكن متعددة حتى يتسنى لهم أداء الأعمال المشار اليها .

وفى الوقت الذى دار الصراع على أشده للتغلب على المدفع ، اكفهر وجه الســماء واشـتدت الرياح وتلاطمت الأمواج وتكاثف الضباب ، وحملت الريح السفينة بعيدا عن طريقهـــا المرسوم ، وراحت تتخبط فى الظلام .

ترك الراكب الكهل مكان الموقعة وصعد الى السطح العلوى ووقف مسندا ظهره الى السارية الرئيسية . ولم يلتفت الى الضـــابط فيوفيل الذى جمع الجنود البحـــارة فى صفين متقابلين حول السارية .. ثم ارتفع صفير حاد فشخصت الأنظار الى ما يجرى .

تقدم القبطان الى الكهل ، يتبعه ضابط المدفعية شاحب الوجه مشوش الملابس ، وحياه التحية العسكرية قائلا :

ــ أيها القائد . جئت اليك بهذا الرجل .

وقف ضابط المدفعية وقفة عسكرية ، مرخيا عينيه . واستطرد القبطان :

ــ ايها القائد . الا ترى انه نظرا الى ما فعله هذا الرجل ، يجدر برؤسائه ان يفعلوا شيئا من ناحيتهم ؟

فقال الكهل : نعم .

فأجاب القبطان : تفضل اذن باصدار الأوامر .

— انت الذى تصدر الأوامر .. انت القبطان .
فأجاب برتوليه : لكنك القائد .
فنظر الكهل الى ضابط المدفعية وقال له : تعال .
تقدم الضابط خطوة . فالتفت الكهل الى القبطان ونزع من صدره وسام القديس لويس ، وشبكه فوق صدر الضابط .
هتف البحارة فى نفس واحد . ورفع الجنود بنادقهم فى تحية عسكرية . ثم أومأ الكهل الى ضابط المدفعية المضطرب ، وقال :
— والآن ، فليعدم هذا الرجل بالرصاص .
خيم سكون كسكون الموت ، وعلت الوجوه حيرة بالغة . وفى هذا الجو رفع الكهل صوته وقال :
— وقع اهمال تعرضت السفينة بسببه للخطر . وربما كانت هالكة لا محالة فى هذا الوقت . ان ركوب البحر كمواجهة العدو . إن السفينة فى عرض البحر كالجيش يشتبك فى معركة . وقد تختفى العاصفة ، لكنها لا تغيب . ان البحر كمين يحمل الموت فى طياته . والموت هو العقوبة التى تجازى بها كل غلطة ترتكب عند مواجهة العدو . والغلطة الواحدة لا دواء لها . والواجب أن نكافىء الشجاع لشجاعته ، وأن نعاقب المهمل جزاء اهماله .
ثم التفت الى الجنود واستطرد : قوموا بواجبكم .
اعطى القبطان اشارة خاصة ، فنزل اثنان من البحارة الى داخل السفينة ، وعادا بعد قليل يحملان كيسا ، ويتبعهما قسيس السفينة ، ثم تقدم جاويش واصدر امرا ، فانفصل من صفوف الجند اثنا عشر رجلا ، فأوقفهم صفين .
تقدم ضابط المدفعية دون أن ينبس بكلمة بين هذين الصفين . ثم انضم اليه القس حاملا صليبه فى يده .. واصدر الجاويش امره بالسير ، فتقدم هذا الموكب بخطوات بطيئة الى مقدمة السفينة ، يتبعه البحاران حاملين الكفن .
خيم على السفينة سكون رهيب .. ولعلع هدير العاصفة من بعيد .
أضاء شهاب بارق بعد دقائق . وتجاوب صوت الرصاص فى مقدمة السفينة .. وساد السكون .. ثم سمع صوت سقوط جسم فى البحر .
وقف الكهل مسندا ظهره الى سارية السفينة ، مشبكا ذراعيه فوق صدره ، يفكر فى سكون .

أومأ برتوليه باصبعه الى الكهل وهمس فى اذن فيوفيل :
— ان ميادين (فنديه) اهتدت الى القائد المنشود .

— ٦ —

بين نارين

تكاثفت السحب وتعالت الأمواج، وانتشرت فوق السفينة طبقات الضباب .. وسارع البحارة بالقاء المدافع المعطوبة والأدوات التالفة فى البحر تخفيفا لحمل السفينة . ومع ان العاصفة التى هبت عند الأفق هدأت ثورتها ، فان الأمواج لم تكف عن ثورانها . وفى هذا من الخطر ما فيه على سفينة مثخنة بالجراح .
تقدم الضابط فيوفيل الى جاكوى قائد الدفة حيث وقف فى مكانه يقابل أهوال الطبيعة بهدوء ورباطة جأش وقال له مداعبا :
— ان العاصفة اخطأتنا . وذهبت ثورتها هباء .. سوف ننجو منها .. وما دامت الرياح كافية فهذا كل ما نطلب .
فأجاب جاكوى برزانة :
— حيثما تكون الرياح تثور الأمواج .
كان موقف السفينة المعطوبة شديد الحرج أمام الأمواج . ولما راى فيوفيل خطورة اللهجة التى تكلم بها جاكوى عاد الى رزانته . وقال :
— واين نحن الآن ؟
فأجاب قائد الدفة :
— نحن بين يدى الله .
ابتعد فيوفيل .. وسرعان ما أجابت الطبيعة على سؤاله فقد انقشعت سحب الضباب .. وتبددت الغيوم التى كانت تحجب وجه الأفق .. ولاح عن اليمين بياض الفجر البازغ ، وعن الشمال صفرة القمر الفارب .
فاما عن اليمين فقد ظهرت من ثنايا خيوط الفجر الأولى ثمانى سفن وقفت فى انتظام مروع على مسافات متباعدة . واما عن الشمال فقد ظهرت فى ضوء القمر ثلاث قمم صخرية شاهقة .
هذه السفن هى الأسطول الفرنسي .. واما القمم فهى صخور « مانكيير » .. وهكذا وقعت السفينة بين نارين . وعليها ان تختار

بين مواجهة العدو .. وبين التحطم على الصخور .

كان الموقف عسيرا .. فاذا واجهت السفينة العدو والتحمت معه فليس بها غير تسعة مدافع وقد ذهبت نخبة من خيرة رجالها .. كما أن المحنة التى اصابتها اشاعت العطب فى انحائها حتى عجزت الدفة عن توجيهها ، واخذت الأمواج تقذف بها الى ناحية الصخور المهلكة .. واذا كانت العـــاصفة قد سكنت فان عناصر الطبيعة لا يؤمن جانبها .

— ٧ —

الافــلات

وقف الكهل فوق سطح السفينة يراقب الموقف فى جموده المألوف . وتقدم منه القبطان قائلا :

— سيدى . تمت الاستعدادات . ونحن على ابواب القبر . سنقع اما فى قبضة العدو ، او نتحطم على الصخور . وليست امامنا وسيلة ثالثة . ولكن بقى لنا منفذ واحد . هو الموت . خير لنا أن نقاتل ، من أن نفنى على الصخور . انى افضل الموت بالرصاص ، على الموت غرقا . انى أفضل النار على الماء . اكن اذا كان الموت هو مصيرنا ، فليس هو لك . ان الأمراء اختاروك ووضعوا آمالهم فى شخصك . ان مهمة سامية عظيمة منوطة بك . هى ادارة دفة الحرب فى ميادين (فنديه) . وفى هلاكك القضاء على الملكية . ولذلك لابد أن تعيش . ان واجبنا يحتم علينا البقـاء هنا . اما واجبك فيحتم عليك الذهاب . ولابد أن تغادر السفينة يا سيدى القائد . سأمدك برجل وبقارب . وليس الوصول الى الساحل فى مرحلة طويلة بالأمر المستحيل . لم ينتشر النهار بعد . الأمواج عالية . والبحر مظلم . والافلات ميسور . ان الفـرار هو النصر والغلبة فى بعض الأحوال .

— أحنى الكهل رأسه موافقا . فصاح الكونت برتوليه :

— ايها الجنود ! . ايها البحارة !

سكنت الحركات . وتطلعت الوجوه جميعـــا من كافة نواحى السفينة الى القبطان ، فاستطرد :

— هـذا الرجل الواقف بيننا يمثل الملك . وقـد عهـد الينا

بالمحافظة على سلامته . فيجب أن ننقذه . هو لازم لعرش فرنسا .. وسيتولى قيادة الجيوش فى ميادين (فنديه) . هو قائد عظيم . وكان الواجب أن ينزل الى أرض فرنسا معنا . ولا مفر الآن من نزوله اليها بدوننا . ان انقاذ الراس انقاذ للـكل !

هتف البحارة جميعا فى نفس واحد :

— نعم ! نعم ! نعم !

استطرد القبطان :

— هو يوشك مثلنا ان يستهدف للخطـــر الشديد . ليس من اليسير بلوغ الشاطىء . لـكى يمكن مواجهة البحر الغاضب الهائج ، لابد من قارب كبير . ولكى يتسنى الافلات من الطرادات ، لابد ان يكون القارب صغير الحجم . ومن الضرورى بلوغ الشاطىء فى بقعة مأمونة ، يحسن ان تكون فى جوار « فوجير » . وهذه المهمة تتطلب بحـــارا قويا ، بارعا فى التجذيف ، ماهرا فى السباحة ، من ابناء هذا الشاطىء ، يعرف بحر المانش معرفة تامة . الظـلام كاف ، ومن الممكن انزال القـارب من هذه السفينة دون أن يراه الأعداء . هذا الى اننا سنثير فى الجو دخانا كثيفا يساعد على اخفاء القارب عن العيان . ان حجم القارب سيمكنه من عبور المناطق القليلة العمق . واذا كان يستحيل على هـذه السفينة ان تفلت من صخور (مانكيير) ، فان هذا ميسور للقارب . سيبتعد القارب بسرعة . ولن تراه عين العدو . وفى أثناء ذلك سنتفكه بمشاغلته ، ومداعبته . هل انتم موافقون ؟

هتف البحارة : نعم ! . نعم ! . نعم !

فاستطرد القبطان : من منكم يتطوع ؟

برز من صفوف البحارة واحد من خلال الظلام : وقال : انا .

— ٨ —

الغـــــريم

ما كادت تمضى بضع دقــائق حتى انزل من السفينة (كليمور) قارب صغير متين البنيان يحمل الكهل والبحار المتطوع ، ومئونة مكونة من كيس من (البسكويت) وجزء من اللحم المقدد واناء من الماء . وراح البحار يجذف بقوة وسرعة مبتعدا عن السفينة متجها

الى صخور (مانكيير) وفقا لأوامر القبطان .

قطع القارب مسافة كبيرة ، وساعدته الرياح والأمواج ، وابتعد عن السفينة .

وفجأة ، ارتفع فوق هدير الأمواج صوت رهيب زاد فى رهبته قرع الطبول . هو صوت القبطان برتوليه ، الذى صاح فى رجاله :

– يا بحارة الملك ! . ارفعوا العلم الأبيض فوق السارية ! لن نرى شروق الشمس الا مرة واحدة !

ثم اطلقت السفينة « كليمور » مدفعها الأول ، وهتف البحارة :

– يحيا الملك !

فجاوبهم من أقصى الأفق هتاف داو بهذه الكلمات :

– تحيا الجمهورية !

وانفجر على اثر هذا الهتاف دوى رهيب يصم الآذان ، وكأن السماء أرسلت وابلا من صواعقها ورعودها .

ابتدات المعركة . وانتشر فوق البحر ستار من دخان ونار . واكتسى وجه الموج بغطاء من الزبد المتلاطم .

وأرسلت السفينة (كليمور) قذائفها النارية على الاسطول . وصوب اليها الأسطول وهو منتظم فى نصف دائرة نارا حامية من كافة مدافعه ، فتوهج الأفق بالنيران المضطرمة وكأنما انفجر فى وسط البحر بركان ثائر يرسل الحمم والقذائف .

جلس الرجلان فى القارب صامتين .. ودنا القارب من صخور « مانكيير » .

فى وسط هذه الصخور الشاهقة بوغاز قليل العمق يحميه من اليسار لسان صخرى مسطح ، ومن اليمين صـــــخور ضخمة متناثرة . وعلى جانبى هذين الحاجزين تتكسر الأمواج حتى اذا وصلت الى ماء البوغاز نفسه تلاشت وانعدم تأثيرها .

اتجه البحار بالقارب الى هذا البوغاز ، وراح يشق طريقه فيه بحذر ومهارة . وفى هـــذا الوقت حجبت الصخور شبح الصراع الرهيب الدائر بين الأســطول والسفينة (كليمور) . واخــذت اصوات المدافع الداوية تخفت وتتلاشى ببعد المســافة . ولــكن استمرار الطلقات دل على أن (كليمور) تــكافح وتنــاضل حتى النفس الأخير .

وصل القارب الى الجانب الآخر من الصخور ، بعيدا عن ميدان القتال ، ومتناول المدافع والرصاص .

واخذ ضوء النهـــــار ينتشر ، وانعكست طلائعه فــوق رءوس الامواج .

نجا القارب من قبضة العدو . لكن بقيت مرحلة شاقة رهيبة . فهو قارب ضئيل بغير شراع ولا سارية ولا بوصلة . أو هو ذرة صغيرة فى بحر متلاطم الأمواج ، وتحت رحمة العواصف والانواء .

فى هذه العزلة الموحشة ، وتحت رحمة الطبيعة الجبارة رفع البحار راسه ، ونظر الى الكهل مليا ، ثم قال :

– انا اخ الذى أمرت باعدامه .

الفصل الثالث

هالالو

ـ ١ ـ

موقف رهيب

رفع الكهل راسه ببطء ، ونظر الى البحار .

كان البحار رجلا فى الأربعين من عمره ، أسمر الوجه ، نفاذ العينين ، قوى البنية ، يحمل فى حزامه خنجرا ومسدسين ومسبحة .

قال الكهل : من أنت ؟

ـ قلت لك الآن من انا .

ـ وماذا تريد ؟

علق البحار المجذافين فى القارب .. وشبك ذراعيه فوق صدره ، وأجاب : اريد ان اقتلك .

فقال الكهل : كما تحب .

رفع البحار صوته وقال : استعد .

ـ لأى شىء ؟

ـ للموت .

فقال الكهل : ما السبب ؟

ساد السكون ، وظهرت دلائل الحيرة على وجه البحار ازاء هذا السؤال ، ثم قال :

ـ اقرر لك انى انوى قتلك .

ـ وانا اسأل عن السبب .

لمعت عينا البحار واجاب :

ـ لانك قتلت اخى .

فقال الكهل بأتم هدوء :

ـ انى انقذت حياته أولا .

ـ هذا صحيح .. انقذته أولا .. ثم قتلته .

ـ لست أنا قاتله .

ـ ومن اذن ؟

ـ اهماله وغلطته .

حدق البحار الى الكهل وهو فاغر الفم .. ثم عبس عبوسا ينذر بالشر والاجرام .

سأله الكهل : ما اسمك ؟

ـ هالالو .. لكن لا حاجة بك الى معرفة اسمى ما دمت سأقتلك .

اشرقت الشمس فى هذا الوقت ، وسطع ضوؤها على وجه البحار فكشف عن وحشيته . وجعل الكهل يتفرس فى وجهه مليا .

تناول البحار احد المسدسين بيده اليمنى ، وامسك باليسرى مسبحته . نهض الكهل وبسط قامته ، وقال :

ـ هل تؤمن بالله ؟

فأجاب البحار : كل الايمان .

ـ هل لك ام ؟

ـ نعم .

ثم استطرد البحار وهو يشهر مسدسه : انتهى الكلام .. انى امهلك دقيقة يا مولاى .

ـ لم تنادينى بمولاك ؟

ـ من الجلى انك سيد .

ـ هل لك انت سيد ؟

ـ نعم .. وهو سيد عظيم .. هل يمكن أن يكون الانسان بغير سيد ؟

ـ واين سيدك ؟

ـ لا ادرى .. انه غادر هذا الاقليم .. هو يدعى الماركيز دى لانتناك ، فيكونت دى فونتناى ، أمير (بريتانى) ، ملك الغابات السبع . انى لم اره فى حياتى ، لكن هذا لا يمنع انه سيدى ومولاى .

ـ وهل اذا رأيته تطيعه ؟

ـ بلا ريب .. انى اكون جاحدا اذا لم أطعه ، انى اطيع الله ،

والملك ، ومولاى ، لكن هذا لا يتصل بموضوعنا ، انك قتلت اخى ، فلابد من قتلك .

فأجاب الكهل : موافق ، انى قتلت اخاك ، وحسنا فعلت .

احكم البحار تصويب المسدس وقال :

— استعد .

فقال الكهل فى هدوء تام : ليكن .. اين القسيس ؟

حملق البحار فى وجهه وقال : القسيس ؟

— نعم .. القسيس ، انى امددت اخاك بقسيس ، فانت مدين لى بقسيس .

فقال البحار : ليس عندى قسس ، وهل يوجد القسس فى عرض البحر ؟

فقال الكهل وهو يشير الى دوى المعركة البعيدة .

— ان الذين يموتون هناك يستغفر لهم قسيس .

فغمغم البحار : صحيح ، عندهم قسيس السفينة .

فاستطرد الكهل : ستتعذب روحى ، هذه مسألة خطيرة .

اطرق البحار برأسه مفكرا ، بينما استطرد الكهل :

— واذا عذبت روحى ستعذب روحك . اسمع ، انى ارثى لك ، افعل ما تشاء ، أما انا فقد أديت واجبى ، أديته أولا بانقاذ حياة اخيك ، وأديته ثانيا بانتزاع هذه الحياة منه ، وانى أؤدى الآن هذا الواجب اذ احاول انقاذ روحك من العذاب . فكر فى الأمر ، هذا شأنك . هل تسمع دوى المدافع فى هذه اللحظة ؟ .. هناك رجال يهلكون ، هناك بؤساء يفنون ، هناك أزواج لن يروا زوجاتهم ، وآباء لن يلتقوا بأبنائهم ، واخوان — مثلك — لن يشاهدوا اخوتهم . من هو المتسبب فى هذه النكبة ؟ .. هو اخوك ، اى انت .

لو كان اخوك خادما امينا ، ولو قام بواجبه كما يقوم به كل رجل امين ، لما حدثت حادثة المدفع الذى أفلت من عقاله ، ولا تعرضت السفينة (كليمور) للعطب ، ولا انحرفت عن طريقها المرسوم ، ولا وقعت تحت رحمة الأسطول المعادى ، ولهبطنا جميعا الى أرض فرنسا كالجنود البواسل ، فرحين ، مستبشرين ، شاهرين سيوفنا ، رافعين علمنا ، ولذهبنا لمساعدة فلاحى (فنديه) الشجعان لانقاذ فرنسا ، ولأرضينا الله .

هذا ما كنا نريد أن نفعل .. هذا ما كان يجب أن يفعل .. بل

هذا ما ندبت أنا الوحيد الباقى ، لفعله . لكنك تجعل من نفسك اله لمقاومة هذه الغاية .

وهب أخوك نفسه للشيطان وكان آلته الأولى .. وهانت ذا تهب نفسك للشيطان وتكون آلته الثانية . ابتدا اخوك ، وانت تتم ما بدا .

انك تقضى على من جعله الله ملاذ فرنسا الأخير .. ستحترق القرى والدور .. وتخرب البيوت .. وتدمع العيون .. ويمتهن رجال الدين .. وتتعذب (بريتانى) .. وبيد من يحدث كل هذا ؟ بيدك وحدك .. افعل ما تريد . هذا شأنك .. انى اعتمدت عليك لمساعدتى فى انقاذ رسالتى ، فاذا بك تحبطها .

صحيح .. انت على حق .. انى قتلت اخاك .. كان اخوك باسلا مقداما فكافأته .. وكان مذنبا مقصرا .. فعاقبته .. انه قصر فى اداء واجبه . اما انا فلم أقصر .. وما فعلته مرة افعله مرات .. أقسم بالله الذى يرانا انى ما كنت أتردد فى اعدام ابنى كما أعدمت اخاك ، فى ظرف مماثل .

انت الآن صاحب الحول والطول ، والأمر والنهى .. انى ارثى لك .. لقد كذبت على القبطان وخنت الأمانة التى وضعها فى عنقك . أنت مؤمن خائر الايمان .. انت وطنى بلا شرف .. انك تهب موتى للذين عهدوا اليك بحياتى .

نعم .. انى اعدمت اخاك .. لكن عليك أن تعلم انى كنت انفذ قضاء الله فى اخيك .. فهل تقاضى من اختاره الله لهذه المهمة ؟ .. هل تقاضى ظواهر الطبيعة التى يسخرها الله بأمره ؟ يا لك من تعس ! . ستقف يوما بين يدى الله ، فيحاسبك على ما جنت يداك .. فكر فيما تفعل .. اقتلنى واقذف بنفسك فى الجحيم .. ان هلاكنا كلينا فى يدك . وستكون وحدك المسئول أمام الله .. نحن وحدنا .. وجها لوجه .. فى هذا الخضم .. اجهز على ! اقتلنى ! .. انا كهل .. وانت شاب .. انا اعزل .. وانت مسلح .. اقتلنى !

وقف الكهل منتصب القامة يلقى هذه الكلمات فى صوت أعلى من هدير الموج .. اما البحار فقد امتقع وجهه ، وانحدر العرق غزيرا فوق جبينه ، واخذ يرتجف كورقة فى مهب الرياح .. وجعل يقبل مسبحته بين وقت وآخر .

وما كاد الكهل يتم كلامه حتى رمى البحار مسدسة وركع على ركبته ، وهتف :

— رحمة يا مولاى . اغفر لى واصفح عنى . انت تتكلم كالقديسين . انى اذنبت . وقد أذنب اخى من قبل . لكنى سأحاول اصلاح جرمه . افعل بى ما تشاء . مر . وعلى السمع والطاعة .

فقال الكهل : عفوت عنك .

— ٢ —

بحار ماهر وفلاح ذكى

مضت ست وثلاثون ساعة قبل وصول القارب الى اليابسة . وقد أبدى هالمالو من ضروب البراعة والحذق فى تسيير القارب مادل على تفوقه فى فنون الملاحة . ومن حسن الحظ أن الرياح سكنت والأمواج هدأت فى هذه المدة غير أن هالمالو اضطر حتى لا يقع القارب فى أيدى العدو أن يقوم بجولة طويلة . وفى اثناء هذه المدة سمع الانسان السفينه (تيمور) تطلق قذيفتها الأخيرة ، ثم ساد السكون ، وتلاشت السفينة فى طوايا الفناء .

وقبيل غروب الشمس فى مساء اليوم التالى وصل هالمالو بالقارب الى شاطىء مهجور بسبب الرمال المتنقلة حوله مما يجعل الملاحة خطرة على السفن الكبيرة .

ومن حسن الحظ ان المد كان مرتفعا فى هذا الوقت . فجعل هالمالو يجذف الى حد معين ، ثم اختبر الأرض الرملية ، ولما وجدها ثابتة انحدر من القارب وجذبه الى الأرض . واقتدى به الكهل ووقف يفحص الأفق .

اخذ هالمالو يشرح للكهل طبيعة المكان وموقعه الجغرافى ، ومد الكهل يده الى القارب وتناول جانبا من (البسكويت) وضعه فى جيبه وامر هالمالو أن يأخذ الباقى .

وضع هالمالو ما بقى من اللحم و (البسكويت) فى الكيس وحمله على ظهره ، ثم قال : مولاى . هل اتقدمك او اتبعك ؟

— لا هذا ولا ذاك .

نظر هالمالو الى الكهل متحيرا ، فقال هذا :

— لابد ان نفترق يا هالمالو .

ثم أخرج الكهل من احد جيوبه رقعة حريرية خضراء تتوسطها زنبقة موساة بالذهب ، واستطرد :

— هل تعرف القراءة ؟

— لا .

— من حسن الحظ .. هل لك ذاكرة قوية ؟

— نعم .

— لا بأس . اصغ الى يا هالمالو . عليك أن تسير الى اليمين . وانا الى الشمال .. سأذهب فى اتجاه « فوجير » . وستذهب فى اتجاه (بوزوج) . احتفظ بهذا الكيس الذى تحمله ، فهو يكسبك مظهر الفلاحين . أخف أسلحتك . واصنع لنفسك عصا من الاغصان . سر فى ظلال الأشجار . وتجنب الناس . وابتعد عن المسالك المطروقة ، والقناطر المشيدة على الأنهار . ستضطر لاجتياز نهر « كوسون » ، فكيف تفعل ؟

— سأسبح .. توجد منطقة سهلة بين « آنس » و « فيل » .

— حسنا .. انت حقا من أبناء هذا الاقليم .

— لكن الليل على الأبواب . فأين ينام مولاى ؟

— انى أعرف كيف أدبر نفسى .. وأنت .. اين تنام ؟

— توجد أشجار مجوفة .. انى كنت فلاحا قبل أن اكون بحارا .

— تخلص من قبعتك البحرية ، والا فضحتك .. من اليسير أن تجد قلنسوة .

— سأحصل عليها من أول صياد .

— حسنا .. اصغ الى . هل تعرف غابات هذا الاقليم ؟

— أعرفها كلها .

— هل لن تنسى شيئا مما أقوله لك ؟

— ولا كلمة .

— حسنا .. انتبه جيدا لما اقول .. فى نهاية الأخدود الكائن بين « ســــان رين » وبين « بلدياتك » توجد شجرة كستناء ضخمة . قف عند هذه الشجرة . لن ترى أحدا حولك .

— لكنى اعرف ان هذا لا يمنع من وجود اناس مختبئين .

— ستنادى النداء الخاص . هل تعرفه ؟

نفخ هالمالو وجنتيه واخرج من فمه صوتا يشبه نعيب البومة ، فقال الكهل :

— بديع . هذا هو النداء بعينه .

بسط الـكهل الرقعة الحريرية الخضراء فى يده واستطرد :
– هذه شارة القيادة الخاصة بى . من الضرورى الا يعرف أحد اسمى فى الوقت الحالى . لـكن هذه الشارة تكفى . ان الزنبقة طرزتها الملكة بيدها فى السجن .
ركع هالمالو على أحدى ركبتيه ، وادنى الرقعـــة من فمه وهو يرتجف . ثم توقف كأنما روعته هذه القبلة ، وقال :
– هل يجوز لى أن اقبلها يا مولاى ؟
– نعم .
قبل هالمالو الزنبقة ، ثم نهض بأمر الـكهل ، ودس الرقعة فى صدره فاستطرد الكهل :
– اصغ الى جيدا . ستبلغ رسالتى بهذه الكلمات : « انهضوا .. ثوروا .. لا ترحموا » ستنادى النداء الخاص عند الشجرة المذكورة ، وهى فى نهـاية غابة « ســانت أوبان » . وتردد هــذه الكلمات ثلاث مرات . وبعد المرة الثالثة سترى رجلا يبرز فجأة من الارض .
– نعم .. من تجويف تحت الأشجار .
– هذا الرجل هو بلانشنو المعروف باسم « قلب الملك » . عليك أن تريه الشــارة ، فيفهم كل شىء .. ثم تذهب الى غابة « استليه » ، حيث تقابل رجلا كسيحا يدعى موسكيتون .. بلغه انى احبه ، وان عليه ان يثير جميع المقاطعات .. هل تعرف غابة « لاتورج » ؟
– وكيف لا اعرفها يا مولاى ؟ . انى نشأت فيها . وبها حصن « لاتورج » الكبير الذى تملكه أسرة سيد أرضنا . وبهذا الحصن باب ضخم من الحـديد يفصل شطر الحصن الجديد عن الشـطر القديم ، وتعجز المدافع عن فتحه . وفى الشطر الجديد يوجد المجلد الضخم المحتوى على تاريخ وصور مذبحة « سان بارثلوميو » ، يذهب الناس لرؤيته من كل مكان . ثم هناك الممر السرى تحت الأرض . بل ربما كنت الوحيد الذى يعرف بوجود هذا الممر .
– اى ممر أرضى ؟ . لا افهم قصدك .
– أنشىء هذا الممر فى العصور القديمة ، وقت ان كان الحصن محاصرا . وكان يمكن الموجودين فى داخل الحصن ان يهربوا من الممر الأرضى الذى يؤدى الى الغابة .
– اعرف ان مثل هذه الممرات توجد فى بعض الحصون المعروفة .

اذن لا يوجد ممر كهذا فى حصن « لاتورج » .
– انى لا اعرف الممرات التى يتكلم عنها مولاى . لكنى أعرف ممر حصن « لاتورج » لانى ولدت فى تلك الجهة ، ولا يوجد من يعرفه بامره سواى . اذ كان الـكلام عنه ممنوعا . لكن ابى كان يعرف سره . وقد اراني الممر نفسه . انى أعرف كيف أدخل واخرج منه . وبوسعى اذا كنت فى الغابة ان أصل الى الحصن وبالعكس دون ان يرانى أحد . انى اعرفه تماما يا سيدى .
سكت الكهل قليلا ، ثم قال :
– انت مخدوع ، لو كان يوجد مثل هذا الممر ، لعرفته .
– انا واثق بوجوده يا مولاى . هناك حجر يدور .
– انتم معشر الفلاحين تصدقون بوجود الحجارة التى تدور ، وتمشى . وتشرب من الغدير فى ظلام الليل . هذه خرافات .
– لـكنى ادرت الحجر بنفسى .
– كما سمعه غيرك يغنى . اسمع أيها الرفيق . ان « لاتورج » حصن قوى يسهل الدفاع عنه . لكن من يعتمد على وجود ممر تحت الارض يكون غبيا أحمق .
– لكن يا مولاى .
هز الكهل كتفيه وقال :
– اننا نضيع الوقت . لنتكلم فيما يعنينا .
فاه الـكهل بهـذه الكلمات فى نبرات جعلت هالمالو يكف عن اصراره . ثم راح يسرد له اسماء الغابات والمواقع التى يذهب اليها ، والأفراد الذين يقابلهم ويبلغهم رسالته ، ثم اخرج من جيبه كيسا ناوله له واستطرد :
– ستحتاج الى مال . فى هذا الكيس مئة جنيه ذهبا هى كل ما عندى . انا لا احتاج الى مال . ومن الخير الا يوجد معى مال بتاتا .
ان الشارة التى أعطيتك اياها ستهيىء لك استقبالا حسنا حيثما ذهبت . ولا تنس انك ذاهب فى اقليم اهله خليط من الفلاحين وأهل الغابات . ومن اليسير أن تتنكر . ان الجمهوريين من الغباوة بحيث يسهل عليك ان تمر من صفوفهم فى كل مكان اذا ارتديت سترة زرقاء وقبعـة ذات شارة مثلثة الألوان . لا توجـد بينهم فرق منظمة ، ولا زى رســمى للجنود . هم شيع واحزاب لا حصر لها . وكل فرد يرتدى الزى الذى يحلو له .

فاذا ذهبت الى جميع هذه الجهات . وقلت الكلمات التى لقنتها لك فستجمع الجيش الملكى وتضم صفوفه اينما كان .

ستقابل جميع القـواد الباقين على قيد الحياة ، وتريهم شارة قيادتى . فيفهمون جميعا معناها والمراد منها . قل لهم بلسانى . « حان الوقت للجمع بين الحربين ، الحـــــرب المنظمة ، والحرب الوحشية . الأولى ذات ضجيج وعجيج . والثـانية ذات محق وتدمير . انِ خير سـلاح وامضاه فى الحروب الأهلية هو الحرب الوحشية . ان نجاح الحـــــرب يقدر بما تنتجه من الهـلاك والدمار » .

هالمالو . انت لا تفهم الكلمات . لكنك تفهم المعانى . انى وثقت بك حينما رأيتك تعالج القارب معالجة الرجل القدير . انت لم تدرس الملاحة . لكنك تصنع المعجـزات فى البحر . ان الذى يعالج قاربا فى الشدائد جدير أن يدير دفة الثورة . وفى يقينى انك ستنفذ اوامرى على احسن الوجوه .

ستكلم جميع القـواد وتفهمهم ما أريد بطريقتك الخاصة . قل لهم انى افضل حرب الغابات على حرب السهول . لا أحب ان اجعـل مئة الف فلاح فى صفوف منظمة فيتعرضوا لمدافع الزرق تفنيهم عن آخرهم . فى نيتى فى أقل من شهر ان أجمع نصف مليون من الفلاحين يكمنون فى الغـــابات ، ويفاجئون الزرق من حيث لا يشعرون . ان اكثر اعتمادى على حروب الغابات لا على المعارك المنظمة . قل لهم ان الانجليز معنا . واننا سنحصر الجمهوريين بين نارين . ان أوروبا تساعدنا . والملوك يشدون أزرنا . فلنسحق الثورة سحقا . ستقول لهم كل هذا . فهل فهمت ؟

— نعم يا مولاى . سأقول لهم أن يسلطوا على العـدو الجديد والنار والا يرحموا أحدا . وسوف أذهب فى كل مكان .

— عليك أن تلزم الحذر . فالموت فى هذا الاقليم كامن فى كل مكان .

— لا تخف يا مولاى . ساكون كلى عيــــونا مفتــوحة وحواسا مرهفة .

— انت رجل باسل .

— واذا سئلت عن اسم مولاى ؟

— يجب الا يعرف اسمى فى الوقت الحالى . اذا سئلت عن اسمى فقل انك لا تعرفه ، وهى الحقيقة .

— واين ارى مولاى فيما بعد ؟

— ستراني حيثما اكون .

— وكيف أعرف مكانك ؟

— لان الدنيا كلهـا ستعرف أين اكون . سيتحدث الناس عنى قبل مضى أسبوع . سأضرب الأمثال الخـــالدة . وستعرف اننى موضوع حديث الناس .

— فهمت .

— لا تنس شيئا .

— كن مطمئنا .

— اذهب الآن . لتحرسك عناية الله .

— سأفعل كل ما امرتنى به . ساطوف . ســأتكلم . ساطيع . ساامر . واذا نجحت ؟

— سأمنحك وسام القديس لويس .

— كما منحت أخى . واذا اخفقت ؟ ستامر باعدامى ؟

— مثل اخيك .

— قبلت يا مولاى .

اطرق الـكهل براسه واستفرق فى التفكير . ولما رفع عينيه كان هالمالو شبحا غامضا يختفى عند الأفق .

غربت الشمس ، وساد سكون تام الا من طيور البحر التى كانت تحلق صارخة فوق الأمواج .

كان الاقليم قفرا موحشا .. فالبحر يمتد من ناحية لا أثر فيه لشراع أو سفينة . والحقول تنبسط من الناحية الاخرى خلوا من اى مخلوق .

الفصل الرابع

تلمارش

ـ ١ ـ

عند قمة التل

انتظر الكهل حتى اختفى هالمالو عن نظره . ثم سار فى جهة مضادة حتى وصل الى تل ارتقاه وجلس عند قمته .

رأى وهو جالس فى مكانه على امتداد النظر طائفة من البلدان والقرى وشاهد أبراج النواقيس تمتد شاهقة طوال الشاطىء حتى تتخذ منها السفن والقوارب معالم تهتدى بها فى سيرها .

استقر نظر الكهل بعد فحص غير قليل عند مجموعة من الاشجار والجدران والسقوف كانت فى منتصف المسافة بين السهل والغابة .. فعرف فيها على الفور المزرعة التى ينشدها ، وهز رأسه راضيا وجعل يلتمس بنظره الطريق الذى يسلكه اليها .

استرعى نظره بعد قليل جسم غامض يتحرك بانتظام فوق سقف البيت الرئيسى فى المزرعة .. ولما لم يستطع أن يميزه بسبب الظلام جلس فى مكانه ساكنا واستسلم للراحة والهدوء .

وفيما هو كذلك سمع فجأة أصوات نساء واطفال يلغطون .. وقد صدرت هذه الأصوات من اسفل التل .. ومع انه لم يستطع أن يرى أصحابها بسبب الأشجار التى حجبتهم عن نظره ، فقد تسنى له أن يسمع الحديث الدائر بجلاء .. وكان المتكلمون يتجهون ببطء الى السهل والغابة فسمع امرأة تقول :

ــ لابد أن نسرع يا فليشار .. هل هذا هو الطريق ؟

فأجاب صوت امرأة اخرى :

ــ لا .. هو هناك .

ــ ما اسم المزرعه التى سننزل فيها ؟

ــ اسمها « زهرة الشاطىء » .

ــ وهل نصل اليها بعد وقت طويل ؟

ــ لا اقل من ربع ساعة .

ــ لابد من الاسراع حتى ندرك العشاء .

ــ نعم .. قد تأخرنا .

ــ يجب أن نجـــرى .. لكن اطفالك متعبون .. ونحن امراتان فقط ، ولا يمكن أن نحمل ثلاثة اطفال . ثم انك يا فليشار تحملين الان طفلة .. هذه عادة قبيحة .. أود أن تتركينى ادربها على المشى

.. لا بأس .. كما تشائين .. سنتناول الحساء باردا .

ــ ان الحذاء الذى أعطيته متين .. وأكاد أظن انه صنع لاجلى .

ــ هذا أحسن من المشى حافية القدمين .

ــ اسرع يا رينيه جان .

ــ هو سبب تأخيرنا فى الواقع .. وكان يصر على مخاطبة بنات الفلاحين اللاتى قابلهن .. هو يستعجل دور الرجولة !

ــ صحيح .. هو الآن فى السنة الخامسة من عمره .

ــ قل لى يارينيه جان .. لماذا خاطبت البنت التى قابلناها فى القرية ؟

فأجاب صوت غلام : انى كنت اعرفها .

فسألته المراة : هل كنت تعرفها حقا ؟

ــ نعم .. عرفتها منذ صباح اليوم .. لعبت معى بعض الألعاب .

فهتفت المراة : انت رجل غريب ! .. لم تمض علينا فى هذه الجهة سوى ثلاثة أيام ! .. هـــذا المخلوق يا فليشار فى طول ذراعك ، ومع ذلك اصطاد حبيبته !

خفتت الأصوات .. ثم تلاشت ولم يعد الكهل يسمع شيئا .

ـ ٢ ـ

الاعـــــلان

جلس الكهل جامدا فى مكانه مستسلما لأفكاره ، كان ضوء النهار لا يزال منتشرا فوق قمة التل ، غير انه كان ضئيلا فى السهل ، اما الغابة فكانت فى ظلام دامس ، وبزغ القمر فى الأفق الشرقى،وانتشرت

فى صفحة السماء نجوم باهتة .

كان الكهل يشعر براحة واطمئنان . وخيل اليه ان كل الاخطار التى كانت تهدده قد زالت بعد أن نجا من البحـــر ووصل الى اليابسة .

لم يكن أحد يعرف اسمه . وهو الآن وحده . وقد أفلت من العدو دون أن يترك خلفه اقل اثر . ولا يرتاب احد فى وجوده . واحس فى هذه اللحظة براحة وسكينة وميل الى النوم .

وفجاة نهضّ على قدميه . واسترعى نظـــره شىء يتحرك عنـد الافق . ولما امعن النظر راى جميع النواقيس المتناثرة حوله تتحرك فى ابراجها حركات مستمرة منتظمة .

استخلص من هذا ان النواقيس تقرع فى كافة البلدان والقرى التى حوله . ولم تصل أصواتها الى أذنه لبعد المسافة وهبــوب الرياح فى جهة مضادة . فعجب من هذه الظاهرة . ولم يفهم لهـــا تعليلا الا أن تكون نذيرا بمطاردة انسان معين .

احس هذا الكهل الحديدى الاعصاب بقشعريرة تسرى فى جسده . هل يمكن ان يكون هذا الانسان هو ؟ . هل علموا حقا بافلاته وبوجوده فى هذا الاقليم ؟

لم يلبث ان نفى من ذهنه هذه الهواجس . فقد وصل الى اليابسة منـــذ قليل .. وكل الدلائل تشير الى غرق السفينة « كليمور » بركابها ، كما انه لم يكن بين رجالها من يعرف اسمه سوى القبطان برتوليه والضابط فيوفيل .

وفيما هو كذلك سمع حفيف أوراق بقربه . فالتفت حوله . واذا هو يرى اعلانا كبير الحجم ملصقا الى عمود فوق قمة التل .

كان الاعلان قد الصق فـــوق العمود منذ زمن قصير بدليل آثار البلل التى شاهدها به . على أن الرياح اخذت تعبث بالاعلان وكادت تنزعه من مكانه .

لم ير الكهل هذا الاعلان عند صعوده الى التل ، اذ انه ارتقـاه من الجانب المقابل لوجه العمود الذى الصق الاعلان فوقه . واسرع الكهل الى الاعلان ووضع يده عند رأسه ، وطالع فى الضوء المنتشر ما يلى :

« الجمهورية الفرنسية وحدة لا تتجزأ » .

« نحن حاكم مقاطعة المارن ، ممثل الشعب لدى جيش شربورج الساحلى ، نعلن الآتى : ان ماركيز دى لانتناك سابقا ، فيكونت

دى فونتناى ، الأمير المزعوم فى مقاطعة « بريتانى » ، الذى نزل سرا فى ساحل جرانفيل ، هو متمرد .. وكل من يأتى به حيا أو ميتا ينال مكافأة قدرها ستة آلاف من الفرنكات الذهبية .. وسيعهد فى الحـــال الى فرقة من جيش الساحل فى شربورج بالبحث عنه واعتقاله .. وعلى جميع البلدان والقـــرى أن تقدم كل مساعدة لازمة .

« تحريرا فى دار الحكومة فى جرانفيل فى الثانى من شهر يونيو عام ١٧٩٣ .

حاكم مقاطعة المارن

« امضاء »

وكان تحت هذا التوقيع كتابة أخرى بحروف صغيرة لم يستطع الكهل ان يفسرها لضآلة النور .

رأى الـكهل ان البقاء فوق القمة بعد ذلك غير مأمون العاقبة فهبط من التل وراح يسلك الطريق الذى اختاره للوصول الى المزرعة .

كان السهل مقفرا فى هذا الوقت خلوا من المارة .. ولما وصل الكهل الى بقعة تحجبها الأشجار ، خلع عباءته وسترته الجلدية ، ثم اعاد ارتداء السترة جاعلا وجهها الخشن ذا الشعر ظاهرا .. وارتدى العباءة واستأنف سيره .

وصل الـكهل الى نقطة تفرع عندها الطريق .. وشاهد صليبا من الحجر الصق فوق قاعدته اعلان كالذى شاهده منذ دقائق .. وفيما هو يتجه اليه ناداه صوت قائلا :

ــ الى اين تذهب ؟

التفت الكهل حوله .. فوقع نظره على رجل عند حافة الأشجار طويل القامة ، كبير السن ، أبيض الشعر ، رث الثياب ، يكاد يكون صورة مطابقة له .

كان الرجل يتكىء فوق عصا ، وردد سؤاله قائلا :

ــ انى اسألك الى اين تذهب ؟

فقال الكهل فى هدوء وانفة :

ــ أين أنا اولا ؟

فأجاب الرجـل : انت فى اقطـــاعية « تانيس » . انا متسول الاقطاعية . وانت ربها .

ــ انا ؟

ــ نعم .. انت .. مولاى الماركيز دى لانتناك .

- ٢ -

المتسول

قال الماركيز دى لانتناك بهدوء :
ــ ليكن .. سلمنى .
فاستطرد الرجل :
ــ كلانا هنا فى موطنه .. انت فى الحصن . وانا فى الغابات .
فقال الماركيز : قم بمهمتك .. افضحنى .
فقال الرجل : وكنت ذاهبا الى مزرعة (زهرة الشاطىء) . أليس كذلك ؟
ــ نعم .
ــ لا تذهب اليها .
ــ وما السبب ؟
ــ لأن الزرق نزلوا بها .
ــ متى ؟
ــ منذ ثلاثة أيام .
ــ وهل قاوم أهل المزرعة وأصحاب القرى المجاورة ؟
ــ لا .. بل فتحوا أبوابهم على سعتها .
فقال الماركيز : آه !
اشار الرجل الى سقف بيت المزرعة الرئيسى الذى كان يرى على مسافة وقال :
ــ هل ترى السقف ايها الماركيز ؟
ــ نعم .
ــ هل ترى ماذا يعلوه ؟
ــ جسم يطفو فى الهواء . هو راية .
فقال الرجل : نعم . هى الراية المثلثة الألوان .
كان هذا الجسم هو الذى استرعى نظر الماركيز اثناء وجوده فوق قمة التل .
قال الماركيز : الا تدق النواقيس ؟
ــ نعم .
ــ ولأى سبب ؟

ــ بسببك ولا ريب .
ــ لكنى لا أسمع رنينها ؟
ــ ان الرياح تحمل الصوت الى الجهة المضادة . هل رأيت الاعلان الخاص بك ؟
ــ نعم .
ــ هم يطاردونك . وفى المزرعة نصف فرقة من الجنود .
ــ هل هم من الجمهوريين ؟
ــ من الباريسيين .
فقال الماركيز : لا بأس . لنسر الى الأمام .
خطا الماركيز خطوة فى اتجاه المزرعة ، فأمسك الرجل ذراعه ، وقال : لا تذهب اليها .
ــ والى أين تريد ان اذهب ؟
ــ ستذهب معى الى بيتى .
تفرس الماركيز فى وجه المتسول ، فقال هذا :
ــ اصغ الى يا مولاى الماركيز . بيتى غير مريح ، لكنه مأمون . هو اقل درجة من الكهف . ارضه من أعشاب البحر ، وسقفه من الحشائش والأغصان . تعال معى . فى المزرعة حتفك واعدامك . وفى بيتى تنال قسطا من الراحة والنوم . لابد انك تشعر بالتعب . وفى صباح الغد سيجلو الزرق ويرحلون ، وعند ذلك تذهب اينما شئت .
امعن الماركيز فى الرجل ، وسأله :
ــ مع من أنت ؟ . هل انت جمهورى ؟ . هل انت ملكى ؟
ــ انا متسول .
ــ لا ملكى ولا جمهورى ؟
ــ لا اظن .
ــ هل انت مع الملك او ضده ؟
ــ وقتى لا يسمح لى بالتفكير فى هذه المسائل ؟
ــ ما رأيك فيما يحدث هذه الأيام ؟
ــ ليس عندى مورد اعيش منه .
ــ لكنك جئت لمساعدتى ؟
ــ لأنى رأيتك مقصيا عن دائرة القانون . ما هو القانون ؟ لست افهم كيف يكون الانسان فى حدوده ، وكيف يتجاوز نطاقه . هل انا فى حدود القانون ؟ هل أنا متجاوزه ؟ . لا ادرى بتاتا . هل الموت جوعا مما يدخل فى دائرة القانون ؟

— كم لبثت معرضا للموت جوعا ؟
— طول حياتى .
— ثم تنقذنى ؟
— نعم .
— لم ؟
— لأنى قلت لنفسى : هذا مخلوق اشد بؤسا منى .. انى أملك ان أعيش وأن اتنفس .. اما هو فلا .
— هذا صحيح .. وانت تنقذنى ؟
— بلا ريب .. نحن أخوان فى البلاء يا مولاى ، انا اطلب الخبز وانت تطلب الحياة ، نحن متسولان !
— لكنك تعلم أن هناك ثمنا لراسى ؟
— نعم .
— وكيف علمت ؟
— قرأت الاعلان .
— تعرف القراءة ؟
— اعرف القراءة .. والكتابة ايضا .. هل هناك ما يوجب أن أكون حيوانا ؟
— ما دمت تعرف القراءة ، وما دمت رأيت الاعلان ، فانت تعرف ان بوسعك أن تربح ستة آلاف من الفرنكات بكشف شخصيتى ؟
— أعرف هذا .
— وليس هذا المبلغ بالأوراق المالية .
— نعم .. اعرف أنه بالعملة الذهبية .
— ستة آلاف من الفرنكات الذهبية .. هل تعرف انها ثروة ؟
— نعم .
— وأن من يعتقلنى يغتنى مدى الحياة ؟
— لا بأس .. وماذا بعد ؟
— مدى الحياة ؟
— هذا ما فكرت فيه بالضبط .. حينما رأيتك قلت لنفسك : هذا رجل يستطيع الانسان بتسليمه ان يربح ستة آلاف من الفرنكات الذهبية ويغتنى مدى الحياة ، فلنسرع اذن باخفائه ..

تبع الماركيز المتسول .. فاندسا فى غابة ووصلا الى كهف المتسول. كان تجويفا محفورا فى قلب شجرة بلوط ضخمة ، تغطيه فروعها . كان كهفا مظلما ، منخفضا ، محجوبا عن العيون ، يسع اثنين .

قال المتسول : اننى رأيت انى قد استضيف بعض الناس ، مثل هذه المساكن الأرضية مألوفة فى اقليم (بريتانى) . وكان الكهف مزودا ببعض الأوعية ، وأوراق الأشجار الجافة . وزناد ، وحطب جاف .

زحف الاثنان الى هذا المسكن الذى تجعل منه جذور الشجرة اقساما عجيبة ، وجلسا فوق كومة من الاعشاب البحرية الجافة التى جعلت منه فراشا . ومع ان الظلام يسود المكان ، الا ان العين لا تلبث ان تألفه ، كما ان خيوطا ضئيلة من ضياء القمر كانت تنعكس على مدخل الكهف . وكان فى أحد أركانه اناء ماء ورغيف من الخبز الأسمر الجاف وقليل من الكستناء .

قال المتسول : لنتعش .

تقاسما الكستناء . وقدم الماركيز جانبا من (البسكويت) الذى كان يحمله . وأكلا الرغيف الأسمر ، وشربا من الوعاء واحدا بعد الآخر .

قال الماركيز : اذن كل شىء سواء عندك . ولا تهتم بما يحدث او لا يحدث ؟
— نعم . انتم السادة . وتلك شئونكم ومشاغلكم .
— لكن مهما يكن ، فان الحوادث الجارية لابد أن تهمك .
— هى تحدث فى محيط لا يعنينى . ثم هناك مسائل اهم منها تتجدد . فالشمس تشرق وتغرب . والقمر يستدير ويتضاءل . هذه هى المسائل التى تعنينى .

ثم رشف من الاناء وقال :
— ماء عذب سائغ . كيف وجدت طعم الماء يا مولاى ؟

فقال الماركيز : ما اسمك ؟
— اسمى تلمارش . لكنى ادعى المتسول . وهم يلقبوننى ايضا بالعجوز . وقد أطلقوا على هذا الاسم منذ اربعين سنة .
— أربعين سنة ! لكنك كنت صغيرا فى ذلك العهد .
— لم أكن صغيرا فى حياتى . وبعكس ذلك يا مولاى الماركيز تبقى انت صغيرا دائما . ان لك ساقى فتى فى العشرين . وبوسعك ان ترتقى الهضاب والتلال . اما انا فلا اكاد اقوى على المشى . انى اتعب بعد مسيرة نصف ميل . ومع ذلك فنحن متساويان فى العمر . لكن الأغنياء يمتازون عنا .. فهم يأكلون كل يوم .. الأكل يحفظ القوة .

سكت المتسول قليلا ثم استطرد :

ـ الفقر ! . الفنى ! . هذا موضوع مخيف ! . هو اصل البلاء والكوارث .. وهذا هو رايى على الأقل . الفقراء يلتمسون الفنى . والاغنياء لا يحبـــــون أن يفتقروا . احسب ان هذا هو تلخيص الموضوع . على انى لا أبحث هذه المسائل ولا أدس انفى فيها .

اخذ المتسول الى الصمت مرة ثانية ، ثم استطرد :

ـ أنا رجل اعرف قليـلا فى الطب ، اعرف خصائص الأعشاب وأدرس طبائع النباتات ، والفلاحون يروننى مشفول الفكر ، شارد الذهن ، فيحسبوننى ساحرا ، انى احلم ، فيظنوننى مفكرا .

فقال الماركيز : هل انت من هذه النواحى ؟

ـ لم أفارقها فى حياتى .

ـ هل تعرفنى ؟

ـ بالطبع .. رايتك لآخر مرة حينما مررت من هنا منذ سنتين ، وذهبت الى انجلترا .. ومنذ قليل رايت رجلا على قمة التل .. رجلا مفرط الطول ، ان طوال القامة نادرون . (بريتانى) موطن القصار . امعنت نظرى .. وكنت قرات الاعلان ، فقلت لنفسى : « هو بعينه » ولما هبطت من التل عرفتك فى ضوء القمر .

ـ ومع ذلك لا اعرفك .

ـ انك رايتنى . لـكنك لم تنعم النظر الى . أما انا فرأيتك من قبل ، وانعمت فيك النظــر . المحسن والمتسول لا ينظــران بعين واحدة .

ـ هل قابلتك من قبل ؟

ـ مرارا .. انا متسول نالنى فيض احسانك . كنت اقف فى الطريق المؤدى الى حصنك ، وكنت تجود على .. لكن المحسن لا يلقى الا نظــرة عارضة . اما المحسن اليه فينظر ويفحص . المتسول مرادف للجاسوس . وانى وان كنت محزون النفس فى اغلب الاوقات، الا انى لا أحاول أن اكون جاسوسا شريرا .. اعتدت أن أمد يدى . وكنت ترىهذه اليد الممدودة فقط ، فتلقى فيها ما احتاج اليه فى الصباح حتى اموت فى المساء .. طالما بقيت أربعـا وعشرين ساعة بغير طعام . فالسنتيم هو الحياة أحيانا . .أنا مدين لك بحياتى .. وانى ارد الدين .

ـ هذا صحيح . فانت تنقذ حياتى .

ـ نعم . انى انقذك يا مولاى .

ثم استطرد تلمارش فى نبرات خطيرة : بشرط واحد .

ـ وهو ؟

ـ الا يكون مجيئك الى هنا لعمل الشر .

فقال الماركيز : جئت الى هنا لعمل الخير .

فقال المتسول : لننم .

تمدد الاثنان جنبا الى جنب فوق الأعشاب البحرية . واستغرق المتسول فى النوم على الفور . اما الماركيز فانه راح يقدح زناد فكره رغم اشتداد تعبه .. وأخذ ينظر مليا الى المتسول .

على انه استلقى اخيرا على جنبه . وانتهز هــذه الفرصة ووضع اذنه على الارض .. فسمع دويا غريبا فى أعماق الأرض ، هو صوت النواقيس التى استمرت تقرع حتى الآن .. فان الصوت يسرى فى الأعماق كما هو معلوم .

وأخيرا استسلم الماركيز لسلطان النوم .

ـ ٤ ـ

جوفان

استيقظ الماركيز منتعشا . فراى المتسول واقفا خارج الكهف مستندا الى عصاه وقد سطعت أشعة الشمس على وجهه .

قال تلمارش : مولاى ، دق ناقوس (تانيس) مؤذنا بالســاعة الرابعة . انى سمعت الدقات وأحصيتها . ومعنى هذا ان اتجاه الرياح تغير . ولم أسمع صوتا آخر ، ومعنى هذا ان رنين النواقيس انتهى .. كل شيء هادىء حول المزرعة . اما ان الزرق نيام ، أو أنهم رحلوا . انتهت مرحلة الخطــر . خير لنا ان نفترق . هــذا وقت سيرى .

وأشار الى نقطة عند الأفق واستطرد : سأذهب فى هذا الاتجاه .

ثم اشار الى الجهة المقابلة واردف : اذهب انت فى ذلك الاتجاه .

حيا المتسول الماركيز ، واشار الى بقايا العشاء قائلا :

ـ خذ الكستناء اذا كنت جائعا .

وما هى الا لحظات حتى اختفى بين الأشجار .

نهض الماركيز وسار فى الاتجاه الذى أشار اليه تلمارش . ولـما وصل الى مفترق الطرق حيث يوجد الصليب الحجرى رأى الاعلان ما يزال ملصقا فوق قاعدته . وتذكر فى هذه اللحظة ان هناك كتابة

فى ذيل الاعلان لم يستطع تلاوتها فى الليلة الماضية لصغر حروفها وضآلة النور . فاتجه الى الصليب ورأى فى اسفل الاعلان كتابة بحروف صغيرة هذا نصها :

« سوف يعدم الماركيز السابق دى لانتناك بالرصاص حالما تتبين شخصيته » .

« قائد جيش الساحل »

« جوفان »

وقف الماركيز جامدا فى مكانه ، وراح يحدق فى الكتابة ويقدح زناد فكره ويقول :

— جوفان ! .. جوفان !

ابتعد الماركيز .. ثم ادار رأسه والقى نظرة ثانية على الصليب .. وعاد ادراجه وقرأ الاعلان مرة ثانية .. ولما استأنف سيره من جديد كان يردد اسم « جوفان » فى صوت خافت .

سار الماركيز فى طريق منخفض يمتد حول أرض مرتفعة .. وفيما هو كذلك رن فى اذنيه دوى هائل مروع .. هو مزيج من الصراخ ودق الطبول وطلقات البنادق .. صدر من الحقول والغابات المجاورة . ثم لمح الماركيز سحبا من الدخان والسنة من النيران تتصاعد من ناحية المزرعة .

حدث كل هذا فجأة .. واستحال الهدوء السائد الى ضجيج يصم الآذان . ولم يتمالك الماركيز ان ارتقى المرتفع ووقف عند قمته يستطلع ما يجرى ، وسمع الصراخ يدوى فى أرجائها .

راح يسائل نفسه .. ترى هل اعتدى الزرق على المزرعة واعملوا فيها التقتيل والتحريق كشأنهم كلما ارادوا أن يعاقبوا قريةمن القرى. انهم كثيرا ما عمدوا الى انزال هذا العقاب الصارم بالقرى التى تتهاون فى تمهيد الطرق لجيوشهم فى ظلمات الغابات ومغاورها .

تطلع الماركيز الى الغابات الكثيفة المحيطة بالمزرعة .. وفيما هو فى مكانه يضرب اخماسا فى اسداس ويتردد بين الوقوف والنزول ، تلاشى دوى المزرعة فجأة ، وسمع الأصوات تنتقل من المزرعة الى داخل الغابة . كانت مزيجا من دق الطبول وصيحات الفوز والنصر .. وجعلت هذه الأصوات تنتقل بسرعة فى الغابة ، فأيقن ان أصحابها يطاردون شخصا أو اشخاصا .

وفجأة ، سمع اسما يتردد صداه على الف لسان واخترقت اذنيه هذه الصيحات الداوية :

— لا نتناك ! .. لانتناك ... الماركيز دى لانتناك !

اذن هم يطاردونه هو دون سواه !

— ٥ —

فظائع الحرب الأهلية

برزت من بين أشجار الغابة فجأة مئات البنادق والحراب والسيوف وبينها علم مثلث الألوان . وظهرت سحن وحشية لم يكد يراها الماركيز وهى تردد اسمه ، وانما كانت هى تراه بجلاء فى موقفه فوق قمة المرتفع . وكان صراخها يصم الآذان .

رفع الماركيز قبعته ، واخرج من جيبه رقعة بيضاء ، وتناول عودا من النباتات الشائكة النامية حوله ، فتشبك الرقعة فى القبعة ووضعها ثانية على رأسه .. ثم رفع رأسه وصاح بأعلا صوته :

— انا الرجل الذى تبحثون عنه ! .. أنا الماركيز دى لانتناك ، فيكونت دى فونتناى ، امير الغابات ، قائد عام جيوش الملك ! .. صوبوا ! .. اطلقوا !

ثم مزق سترته بكلتا يديه وعرض صدره مجردا للعيان .

القى نظرة الى اسفل ، متوقعا أن يرى الأسلحة المصوبة اليه ، فالفى نفسه محوطا برجال راكعين على اقدامهم .. وارتفع صوت يدوى بهذا الهتاف :

— يحيا لانتناك ! .. يحيا القائد !

وفى نفس الوقت راى قبعات ترتفع فى الهواء ، وسيوفا تقذف فى فرح وابتهاج ، وعصيا تعلوها قلانس من الصوف تهتز فى كل مكان .

كان الجيش الذى احاط به هو أحد جيوش (فنديه) وقد ركع أفراده على الأرض تحية له واجلالا .

اخترق صفوف الراكعين شاب نبيل الملامح يرتدى سترة من الفراء وحول وسطه حزام حريرى أبيض يتدلى منه سيف ذو مقبض ذهبى . وما كاد يصل الى الماركيز حتى القى قبعته وفك حزامه وركع فوق احدى ركبتيه على الأرض وقدم الحزام والسيف الى الماركيز قائلا :

— نحن نبحث عنك حقا ، وقد وجدناك ، تقبل سيف القيادة ، هؤلاء هم رجالك ، كنت قائدهم ، اما الآن فانى أتنحى واندمج فى الصفوف ، تقبل خضوعنا يا مولاى ، أيها القائد ، انا فى انتظار أوامرك .

اشار الشاب اشارة خاصة ، فخرج من الغابة طائفة من الرجال

يحملون علما مثلث الألوان هو الذى رآه الماركيز من قبل ؛ وتقدم الرجال الى حيث وقف الماركيز ووضعوا العلم تحت قدميه ، وقال الشاب الذى قدم اليه الحزام والسيف :

— أيها القائد .. هذا هو العلم الذى انتزعناه من الوحوش الذين استولوا على مزرعة (زهرة الشاطىء) .. مولاى ، اسمى جافار ، وأنا من رجال الماركيز دى لاروارى .

قال الماركيز : احسنتم .

ثم وضع الحزام حول وسطه بهدوء ورزانة ، وانتزع السيف ولوح به فوق راسه ، وهتف بأعلا صوته :

— انهضوا ! .. يحيا الملك !

نهض الجميع .. ودوى فى الغابة صوت كقصف الرعد :

— يحيا الملك ! .. يحيا الماركيز ! يحيا لانتناك .

التفت الماركيز الى جافار وسأله :

— كم عددكم ؟

— سبعة آلاف .

وفيما هما ينحدران من المرتفع . استطرد جافار :

— مولاى ، الموضوع غاية فى البساطة .. ويمكن تلخيصه فى كلمات ، كنا ننتظر شرارة واحدة لاضرام نار حماستنا ، ان المكافأة التى أعلنتها الجمهورية حينما كشفت عن وجودك اثارت كل الأقليم واستنهضته من اجل الملك ، وفوق ذلك فقد وردنا اخطار من عمدة جرانفيل الذى هو من رجالنا ، وفى الليلة الماضية قرعوا جميع الأجراس .

— لمن ؟

— لك .

فقال الماركيز : آه !

واستطرد جافار : وها نحن اولاء .

— وعددكم سبعة آلاف ؟

— اليوم .. وسنكون ضعف هذا العدد غدا . كنا واثقين من وجودك فى أحد جوانب هذه الغابة ، وأخذنا فى البحث عنك .

— وهاجمتم الزرق فى مزرعة (زهرة الشاطىء) ؟

— ان اتجاه الرياح حال دون سماعهم دقات النواقيس .. ولم يرتابوا فى شىء .. وقد استقبلهم أصحاب المزرعة الأغبياء استقبالا حسنا .. وفى صباح هذا اليوم أحطنا بالمزرعة .. وكان الزرق نياما

.. هجمنا عليهم .. عندى جواد .. فهل تتنازل بقبوله أيها القائد ؟

— نعم .

قاد أحد الفلاحين جوادا أبيض ودنا من الماركيز .. فامتطاه بغير المساعدة التى قدمها اليه جافار .. فهتف الفلاحون اعجابا .

حيا جافار تحية عسكرية وقال :

— أين تجعل مقر القيادة يا مولاى ؟

— فى غابة (فوجير) أولا .

— هى احدى غاباتك السبع يا مولاى الماركيز .. أنا فى انتظار أوامرك أيها القائد .

— أولا .. ليكن ملتقانا فى غابة فوجير .. اطلب الى الرجال ان يتفرقوا .. وأن يذهبوا الى هناك .

غاب جافار قليلا ثم عاد قائلا :

— اعطيت الأوامر .

— ألم تخبرنى بأن أصحاب المزرعة احسنوا استقبال الزرق ؟

— نعم يا سيدى القائد .

— هل أحرقتم البيت الرئيسى فيها ؟

— نعم .

— احرقوها كلها .

— ان الزرق حاولوا الدفاع عن أنفسهم . لكنهم كانوا مئة وخمسين ونحن سبعة آلاف .

— من أين هم ؟

— من باريس ، وكان لهم راية شعارها (الفرقة الحمراء) .

— هم حيوانات متوحشة .

— ماذا نفعل بالجرحى ؟

— اجهزوا عليهم .

— وماذا نفعل بالأسرى ؟

— اعدموهم .

— هم حوالى ثمانين رجلا .

— اعدموهم جميعا .

— بينهم امرأتان .

— اعدموهما كذلك .

— وثلاثة أطفال .

— احملوهم . سنقرر فيما بعد ماذا نصنع بهم .
وهمز الماركيز جواده وابتعد به .

— ٦ —

الضحايا

بينما كانت هذه الحوادث تقع فى جوار (تانيس) ، كان المتسول يهيم على وجهه فى اتجاه (كرولون) .

اخذ يتنقل بين الحقول والفدران مستسلما لأحلامه لا يفكر فى شيء وكان يسمع بين حين وآخر صدى الصراع الدائر فيقف قليلا ، ثم يستأنف سيره غارقا فى سحر الطبيعة مستمعا الى تغريد الأطيار. وكان اذا تعب يستريح ، واذا جاع يأكل من الثمار الجافة التى يصادفها ، واذا عطش ينهل من الجداول الجارية .

ولما أقبل المساء وصل الى بقعة مكشوفة يشرف الناظر منها على الأفق الغربى .. فاسترعى نظره عن بعد عمود من الدخان رأى من كثافته واختلاطه بألسنة حمراء ما اقلقه واثار وساوسه .

كان الدخان صادرا من ناحية مزرعة (زهرة الشاطىء) . فأسرع تلمارش فى سيره متجها الى مصدر الدخان . ومع أنه كان متعبا الا ان رغبته فى الوقوف على الحقيقة جعلته يتغلب على تعبه .

ووصل الى قمة تل تقع المزرعة والقرية فى نهايته . فلم يجد أمامه مزرعة ولا قرية بل رأى كوما من الخرائب يحترق . هو ما بقى من (زهرة الشاطىء) .

وقف تلمارش فى مكانه جامدا . لم يسمع صوتا بشريا . بل كانت السنة النار تأتى على ما بقى من القرية فى سكون . وكان الدخان ينكشف أحيانا فيسفر عن سقوف هاوية تحتها غرف تتوهج فيها بقايا الأثاث المحترق .

أصغى تلمارش لعله يسمع صراخا أو استنجادا . فلم يسمع شيئا .. اين ذهب اصحاب القرية الذين كانوا يقيمون فى ارجائها ويكدون ؟ . هل افلتوا جميعا ونجوا بأنفسهم ؟

هبط تلمارش التل ، وتقدم الى المزرعة وكأنه شبح يتنقل فى ارجاء مقبرة . وما كاد يصل الى بيت المزرعة الرئيسى ويطل على الفناء حتى رأى اكداسا من الرجال . فارقتهم معالم الحياه .

ورأى حولهم بركة عظيمة ينبعث منها دخان يسير .. هى بركة من الدماء .

تقدم تلمارش الى الموتى وراح يلقى عليهم نظرة فاحصة فى ضوء القمر ولهب الحريق .

كانوا جنودا يرتدون كسيا زرقاء ، وقد جردت اقدامهم من احذيتها ونزعت اسلحتهم . ورأى حولهم قبعات متناثرة تحمل شارات مثلثة الالوان .

عرف فيهم فرقة الجمهوريين الذين نزلوا فى المزرعة فى الليلة الماضية وعسكروا فيها .. ورآهم مكدسين بنظام فأدرك انهم اعدموا جميعا بالرصاص .

وفيما هو يتأهب للانصراف وقع نظره على جدار منخفض فى الفناء ، ورأى أربع اقدام بارزة من احد اركانه .

كانت الأقدام صغيرة تحمل احذية ... فدنا تلمارش منها ، ورأى امرأتين راقدتين جنبا الى جنب خلف الجدار .. وقد اعدمتا بالرصاص مثل الجنود .

انحنى تلمارش فوق المرأتين .. فوجد احداهما ترتدى شبه سترة رسمية .. فعرف فيها (زميلة) الفرقة .. ورأى فى رأسها آثار اربع رصاصات .

فحص تلمارش المراة الثانية .. عرف فيها احدى الفلاحات ... وكانت متقلصة اللامح مفتوحة الفم مغمضة العينين .. ولم يجد جرحا برأسها .

كانت ملابسها التى ابلاها طول السير مشوشة فوق جسدها بتأثير سقطتها .. وقد كشفت عن صدرها ... فأزاح تلمارش هذه الملابس قليلا ورأى احد كتفيها مثقوبا برصاصة هشمت الأضلاع .

ثم القى نظرة على صدرها المتقلص وغمغم :

— أم ترضع .

لمسها تلمارش بيده .. فلم يجدها باردة .. ولم ير بها سوى الجرح والتهشيم فوق كتفها .

وضع يده على قلبها ، فأحس بخفق ضعيف .. لم تكن ميتة .

وسرعان ما هتف تلمارش بصوت مروع :

— الا يوجد احد هنا ؟

اجابه صوت شديد الخفوت لا يكاد تسمع : هل أنت تلمارش ؟ ..
وفى نفس اللحظة برز وجه من بين الخرائب ، وتلاه رأس من احدى

الفتحات .. واذا هما فلاحان كانا مختبئين . وقد بقيا وحدهما من الكارثة . ولما سمعا صوت المتسول اطمأنا وخرجا من المكان الذى اعتصما به .

تقدما الى المتسول الكهل وهما ينتفضان بشدة .. فأشار بيده الى المراة الممددة تحت قدميه وقد عجز عن الكلام .

قال احد الفلاحين : هل بها رمق من الحياة ؟

أومأ تلمارش برأسه ايجابا ، بينما قال الفلاح الثانى :

— هل المراة الثانية على قيد الحياة ؟

هز تلمارش راسه سلبا .. وقال الفلاح الأول :

— الجميع أموات .. انى رايت كل شيء .. كنت فى مخبئى .. كم أشكر الله لأنى لم أكن ذا عائلة .. ان بيتى احترق .. وقد قتلوا كل انسان .. كان لهذه المراة ثلاثة اطفال صغار . هتف الأطفال مذعورين : « أمى ! » .. وصرخت الأم مجنونة « أولادى ! » .. وقد ذهب القتلة بعد ان اتموا المجزرة .. ذهبوا راضين مسرورين .. حملوا معهم الأطفال بعد أن أطلقوا الرصاص على أمهم . انى رايت كل شيء بعينى راسى . لكنها لم تمت .. الم تقل ذلك ؟ . هل يمكن انقاذها ؟ هل تحب أن نساعدك فى حملها الى كهفك ؟

أومأ تلمارش برأسه ايجابا .

صنعوا نقالة من اغصان الأشجار ووضعوا المراة فوقها .. وحمل الفلاحان النقالة وساروا الى كهف المتسول فى الغابة التى كانت قريبة ، بينما امسك تلمارش بذراع المراة وراح يتحسس نبضها .

وفيما هم يسيرون راح الفلاحان يتبادلان الكلام فى يأس وجنون :

— قتلوا الجميع ! .. واحرقوا كل شيء ! .. هذا فظيع ! .. هذا مروع !

— رباه ! . هل تسير الأمور على هذه الوتيرة منذ الآن ؟

— ان ذلك الرجل الطويل هو الذى أمر بهذه الفظائع .

— نعم . هو الذى تولى القيادة .

— لم أنظر وقت اطلاق الرصاص .. هل كان موجودا ؟

— لا .. ذهب . لكن لا فرق .. فقد ارتكبت هذه الفظائع بأمره .

— اذن فهو مرتكب كل شيء .

— انه قال لهم : اقتلوا .. احرقوا .. لا ترحموا .

— هو ماركيز .. هو الماركيز لانتناك .

رفع تلمارش عينيه الى السماء حينما سمع هذه الكلمات وغمغم :

— لو كنت أعرف !

الفصل الخامس

سيموردان

قد يتبادر الى الأذهان ان باريس الثائرة نعمت بالرخاء والطمأنينة فى أول عهدها بالجمهورية .. والواقع أن السنوات الأولى من الثورة كانت كابوسا مروعا ثقلت وطأته على جميع النفوس بلا استثناء .. وما وافى عام ١٧٩٣ وهو العام الرابع من تاريخ الثورة حتى وقع رد فعل ملحوظ فى نفسية الجماهير .. وبدا التعطش الى القتل وسفك الدماء يميل الى الدعة والاستمتاع بالحياة والتنفس فى جو خال من الضغط والارهاب .

على أن عام ١٧٩٣ امتاز بظاهرة أخرى .. ففيه أشهرت اوروبا الحرب على فرنسا ، وأشهرت فرنسا الحرب على باريس .. ولما كانت الثورة هى انتصار فرنسا على أوروبا ، وباريس على فرنسا ، فقد كان لهذا العام خطورته فى تاريخ الثورة .. وأدرك الباريسيون هذه الحقيقة فأخذوا يستميتون فى الدفاع عن كيان ثورتهم التى حققوها . كانت جيوش المتطوعين من أهل باريس تتدفق الى ميادين القتال ، وكان كل شارع يكون فرقة بأسرها ، ولكل فرقة شعارها الخاص .

وكان لخطباء الجماهير فى ذلك العهد نفوذهم الكبير وتأثيرهم القوى فى استنهاض النفوس واضرام نار الحماسة فى الصدور ، ومنهم من كان مخلصا فى نزعته لا ينشد سوى خير الجمهورية الفتية الناشئة ، ومنهم من كان مغرضا يرمى الى مطامع خاصة ونزوات ذاتية .

كان سيموردان من الفريق الأول . وقد ظفر من الجماهير بالحب والتقدير والاحترام .

نشأ شماسا فى احدى القرى ، اتخذت منه احدى الأسر النبيلة مربيا لولدها . ثم آل اليه ميراث يسير فنال حريته ، واستقل بنفسه .

كان سيموردان عالما مثقفا ، وتشيع للحرية حتى أصبحت عقيدته المتأصلة وامتزجت بدمه ، ولما نشبت الثورة انضم اليها وكان من

أركانها القوية والسنتها الناطقة . واكتسب فى نفوس الجماهير منزلة كبيرة لرجاحة عقله واخلاصه ، وصرامته الشـديدة فى الدفاع عن الجمهورية ، حتى كان يخشـــاه أساطينهـا ويحسبون حسابه ، وينزلون على رأيه .

كان فى الوقت الذى وقعت فيه حوادث هذه الرواية فى الخمسين من عمره ، وملامحه تدل على خلقه ونفسيته . فهو أصلع الراس عريض الجبهة ، ثاقب النظر ، مطبق الشفتين ، تلوح على وجهه دلائل الشمم . .

قلنا ان احدى الأسر النبيلة اتخذت من سيموردان فى شبابه مربيا لولدها .. كانت هذه الأسرة من أعرق العائلات فى الاقاليم ، لهـا طفل يتيم مات أبواه ولم يبق له سوى جدة كفيفة وعم ذى مركز عسكرى كبير فى البلاط الفرنسى كان يقتضيه الغياب الدائم عن مقر الأسرة وحصنها التاريخى القديم ... فلما عهد بالطفل الصغير الفض الى يدى سيموردان المربى ، صاغ منه رجلا بث فى روحه المتفتحة افكاره وعقائده فى الحياة ومثله العليا . وبعبارة موجزة أفرغ فى نفس هذا النبيل روح الرجل الشعبى .

كان سيموردان لهذا الطفل بمثابة الأب ، واحبه حبا ملك عليه وجدانه .. بل ان هذه الرابطة الروحية التى تصل سيموردان بتلميذه كانت أوثق واعمق من صلات الأبوة .

وحينما كان الابن فى دور الطفولة انتابه مرض قاتل .. فعكف سيموردان على تمريضه وواصل الليل بالنهار للسهر عليه حتى نجا من الموت .. وهكذا كان الطفل مدينا لسيموردان بحياته الجسدية والعقلية .

ثم جاء دور الفراق بعد أن اكتمل نمو الابن جسدا وعقلا واصبح شابا يافعا .. فانتقل الشاب النبيل الى صفوف الجندية التى كان فيها ضابطا بالوراثة . وانزوى سيموردان فى عالمه الكهنوتى ، ولم يعد يرى تلميذه .

ولما جاءت الثورة واصبح سيموردان من أعلامها البارزة لم تنسه مشاغلها المتعددة ذكرى تلميذه الذى تربع فى قلبه واحبه من دون الحياة والناس جميعا .

لكن هل يمكن لمثل سيموردان الجمهورى المتصلب ان يقف بمعزل عن هذا الحب وان يعمل غير متأثر به والا يستجيب لسلطانه ؟

هذا ما سوف نراه فى الفصول القادمة .

الفصل السادس

الزعماء الثـــلاثة

كان يوجد بشارع دى باون فى باريس حانة لها غرفة خلفية ، امتازت بالاجتماعات السرية الخاصة التى كان يعقدها فيها رجال من ذوى النفوذ الكبير ، حيث يتداولون بحرية فى معزل عن اعين الجماهير التى كانت تلازمهم فى كل وقت وكل مكان .

فحوالى الساعة الثامنة من مساء اليوم الثامن والعشرين من شهر يونيو عام ١٧٩٣ ، اجتمع بالغرفة الخلفية فى الحانة المذكورة ثلاثة رجال جلسوا متباعدين حول طاولة مربعة ، كل امام جانب ، وتركوا الجانب الرابع خاليا .

كان الاول روبسبير .. والثانى دانتون .. والثالث مارا .. وهم جبابرة الثورة الفرنسية .. وزعماؤها الدمويون .

جلس الثلاثه وحدهم فى الغرفه . وكان امام دانتون زجاجه من النبيذ وكأس .. وامام مارا قدح من القهوة .. وامام روبسبير طائفة من الأوراق ، ومحبرة وختم ، وفى منتصف الطـاولة خريطة تمثل فرنسا .

اما خارج الباب فقد وقف تابع مارا واعطيت اليه الأوامر الا يسمح بدخول احد الى الغرفة الا اذا كان من رجال (لجنة الأمن العام) ، أو من (مجلس الأمة) .

ثم تليت أوراق أمام روبسبير ، وطالت المناقشة بين الزعماء الثلاثة فى غير جدوى ، واحتدم الجدل ، وعلت صوات الغضب والحدة .

وأخيرا وضع روبسبير يده على الأوراق التى امامه واستطرد :

ــ انى تلوت التقارير الواردة من حاكم مقاطعة المارن ، والبيانات المقدمة من الجـاسوس جيلامبر ، اصغ الى يا دانتون ، الحـــرب الخارجية ليست شيئا ، والحرب الأهلية هى كل شىء ، وملخص ما قراته ان « فنديه » التى كانت حتى اليـوم موزعة بين قـواد

متعددين قد انضمت تحت لواء قائد واحد ، هو الرجل الذى نزل الى الساحل الفرنسى فى الثانى من شهر يونيو الحالى ، وقد عرفت من هذه الأوراق من هو وما هى شخصيته .

ان حروب الغابات تتشعب ويتسع نطاقها ... وفى نفس الوقت تتخذ العدة فى انجلترا لغزو الساحل الفرنسى .. هو تحالف بين أهل « فنديه » وبين الانجليز . وحالما يتم استعداد الفلاحين وتتوحد صفوفهم سينزل الانجليز الى البر .. انظر الى الخطة التى سيتبعونها فوق هذه الخريطة .. سيسير الجيشان المتحالفان من أقاليم « فنديه » الى مقاطعة « بريتانى » ، ومن هذه الى « نورماندى » ، حيث الطريق مفتوح الى باريس ....

وقد احتدم الجدل بين الزعماء الثلاثة فلم يلتفتوا الى شخص دلف الى الغرفة من الباب الكائن فى اقصاها ابان احتدام المناقشة .

وأخيرا قال مارا : هذا انت أيها المواطن سيموردان ؟

كان القادم هو سيموردان حقا .

— الاتحاد ! . الاتحاد أيها المواطنون ! . الناس ينتظرون الوحدة .

كان لدخول سيموردان تأثير الماء البارد ينصب فوق الرءوس .. على انه اذا لم يشف دخائل النفوس ، فقد سكن الظواهر .

تقدم سيموردان الى الطاولة .. كان الثلاثة يعرفونه . فقد طالما شاهدوه فى جلسات « مجلس الأمة » حيث كان موضع التحية والاجلال من الجماهير .

قال دانتون :

— جئت فى الوقت المناسب أيها المواطن سيموردان . لنشرح له الموقف .. انا أمثل حزب « الجبليين » وروبسبير يمثل « لجنة الأمن العام » . ومارا يمثل « الكومين » . وسيموردان يحكم بيننا .

فقال سيموردان ببساطة ورزانة : قبلت . ما هو موضوع الخلاف ؟

فأجاب روبسبير : هو « فنديه » .

فقال سيموردان : « فنديه » ! .. هنا الخطر الأكبر .. اذا استهدفت الثورة للهلاك ، فسيكون هلاكها عن طريق (فنديه) .. ان « فنديه » وحدها أخطر من المانيا عشرات المرات .. ولكى تعيش فرنسا ، يجب القضاء على « فنديه » واخماد ثورتها .

اكسبت هذه الكلمات القلائل سيموردان ولاء روبسبير .. ثم استطرد :

— ماذا يحدث الان فى « فنديه » ؟

فاجاب روبسبير : ان « فنديه » وجدت زعيما .. واصبحت خطرا مروعا .

— من هو زعيمها أيها المواطن روبسبير ؟

— المركيز السابق دى لانتناك .. الذى يعد أميرا فى تلك المقاطعة .

ابدى سيموردان حركة خاصة ، وقال :

— انى اعرفه .. كنت مربيا فى بيته .. وكان من ابطال القصور قبل أن يصبح جنديا .

فقال روبسبير : هو رجل مخيف . هو يحرق القرى .. ويقضى على الجرحى .. ويذبح الأسرى .. ويقتل النساء .

— النساء !

— نعم .. انه قتل فيمن قتل أما لثلاثة اطفال .. ولا يعرف احد ماذا صار اليه أمر الأطفال الثلاثة .. هو قائد حقيقى .. يفهم معنى الحروب .

— ومتى وصل الى « فنديه » ؟

— منذ ثلاثة اسابيع .

— لابد من اعتباره متمردا .

— تمت هذه الخطوة .

— ويجب وضع ثمن لرأسه .

— تم هذا .

— وتمنح قيمتها ذهبا .

— تم هذا .

— ويجب أن يعدم بالمقصلة .

— سيتم هذا .

— ومن يتولى هذه المهمة ؟

— انت أيها المواطن سيموردان .

— أنا ؟

— نعم .. ستعين مندوبا مفوضا من قبل « لجنة الأمن العام » وتزود بسلطة مطلقة .

فقال سيموردان : قبلت .

كان روبسبير بارعا فى سرعة اختيار الرجال ، شأن السياسى المحنك . فلم يلبث ان اخرج من حقيبة أوراقه رقعة من الورق

الابيض مطبوعا على رأسها هذا العنوان بحروف كبيرة : « الجمهوريه الفرنسية وحدة لا تتجزأ . لجنة الامن العام »

استطرد سيموردان : نعم ... قبلت .. لا يفل الحديد الا الحديد .. لانتناك رجل صارم شديد الشراسة .. سأكون مثله .. سأشهر عليه حرب الموت . سأخلص الجمهورية منه باذن الله .

فقال روبسبير : احسنت أيها المواطن سيموردان .. ستكون مفوضا بالسلطة اللازمة لدى شاب فى نصف سنك . فعليك ان ترشده ولكن فى حزم وروية . هو يبدو ذا مواهب عسكرية ممتازة . وقد اجمعت كافة التقارير على ذلك . وفى ظرف خمسة عشر يوما استطاع ان يصد الماركيز دى لانتناك المحنك وان يمنع تقدمه . بل هو يدفعه أمامه ، بل سوف يقذفه الى البحر . ان لانتناك له دهاء القائد الخبير وجراة الشباب . وخطته قائمة على اثارة نصف مليون من الفلاحين ، وانزال الانجليز الى البر . لكن القائد الشاب يقاومه ويلزمه التقهقر دون حاجة الى مساعدة من القواد المجاورين . ومن هنا ثار الحسد ضده واختلفت الآراء فى شأنه . فالقائد ليشيل يريد اعدامه . وحاكم المارن يريد تنصيبه قائدا عاما .

فقال سيموردان : يبدو ان هذا الشاب يمتاز بمواهب عظيمة .

فقال مارا مقاطعا : لكن له نقطة ضعف بارزة .

فقال سيموردان : وما هى ؟

فأجاب مارا : الرحمة والطيبة . هو صارم فى ميدان القتال . ضعيف بعد المعركة . هو يعفو . ويرحم . ويحمى الراهبات . وينقذ زوجات النبلاء وبناتهم . ويفرج عن الأسرى والقسس .

فغمغم سيمودان : هذا ضعف خطير .

فقال مارا : بل جريمة .

وقال روبسبير : غالبا .

فقال مارا : بل دائما .

فقال سيموردان : نعم .. دائما اذا كان الانسان يناضل اعداء الوطن .

فالتفت اليه مارا وقال له : وماذا تفعل بزعيم من زعماء الجمهورية اذا أفرج عن زعيم من زعماء الملكية ؟

— انى اعمل برأى القائد ليشيل . انى اعدمه بالرصاص .

فقال مارا : او بالمقصلة .

فقال سيموردان : قد يترك له ان يختار .

فقال مارا : واذا تخاذل قائد جمهورى ، فهل تقطع رأسه أيها المواطن سيموردان ؟

— فى ظرف أربع وعشرين ساعة .

فقال مارا : حسنا .. انى اقر رأى روبسبير . يجب أن يوفد المواطن سيموردان مندوبا مفوضا من قبل « لجنة الأمن العام » الى قائد جيش الساحل .. ما اسم هذا القائد ؟

قال روبسبير وهو ينظر فى أوراقه :

— هذا هو اسمه أيها المواطن سيموردان . ان القائد الذى ستفوض عنده بسلطة كاملة هو فيكونت سابق . واسمه جوفان .

امتقع وجه سيموردان وهتف : جوفان !

لمح مارا هذا الامتقاع الفجائى .. وردد سيموردان كلامه :

— الفيكونت جوفان !

فقال روبسبير : نعم .

وقال مارا وهو يتفرس فى وجه القس : حسنا ؟

ساد سكون قصير .. قطعه مارا قائلا :

— أيها المواطن سيموردان . هل تقبل مهمة المندوب المفوض لدى القائد جوفان بالشروط التى قررتها ؟

فأجاب سيموردان وقد اشتد امتقاع لونه : نعم أقبلها .

تناول روبسبير القلم وغمسه فى المحبرة وحرر بضعة أسطر فوق الرقعة التى يعلوها شعار « لجنة الأمن العام » ووقعها باسمه .. ثم أعطى القلم والرقعة الى دانتون الذى أضاف اليها توقيعه .. وأخيرا وقع مارا بدوره دون أن تفارق عيناه وجه سيموردان المتقلص .

تناول روبسبير الرقعة وحرر التاريخ وأعطاها الى سيموردان ، فطالع فيها ما يلى :

« يمنح المواطن سيموردان ومندوب « لجنة الأمن العام » سلطة مطلقة وتفويضا تاما لدى المواطن جوفان قائد جيش الساحل » .

« روبسبير »

« دانتون »

« مارا »

وكتب تحت هذه التوقيعات تاريخ « ٢٨ يونيو سنة ١٧٩٣ » .

كان مارا يراقب سيموردان وهو يطالع هذا التفويض ، وقال :

— يلزم تعزيز هذا الأمر بمرسوم من « مجلس الأمة » او بتفويض

معتمد من « لجنة الأمن العام » كاملة .. لابد من خطوة اخرى مكملة فى هذا الشأن .

فقال روبسبير : اين تقيم أيها المواطن سيموردان .

ـ فى ميدان « الشهداء » .

فقال دانتون : انت جارى اذن .

فاستطرد روبسبير : لن نضيع دقيقة واحدة ، سيسلم لك غدا تفويض رسمى كامل معتمد من كافة أعضاء « لجنة الأمن العام » . وسيكون بمثابة تعزيز لسلطتك لدى حاكم مقاطعة المارن فيليبو وسواه .. نحن نعرف مواهبك ونقدر كفاياتك .. سيكون فى مقدورك أن تخلق من جوفان قائدا عاما أو ترسله الى المقصلة .. وسيرسل لك التفويض غدا فى الساعة الثالثة مساء .. متى تسافر ؟

فأجاب سيموردان : فى الساعة الرابعة .

الفصل السابع

فى ظلام الغابات

كانت مقاطعة (بريتانى) فى ذلك العهد تضم سبع غابات مرهوبة الاسم ، يملكها نبيل يعرف باسم (أمير الغابات السبع) ، هو الفيكونت دى فونتناى ، وكان له فى هذه الاقاليم مقام الأمراء .. ومن أشهر هذه الغابات. غابة فوجير المجاورة لحصن الفيكونت المذكور .. وهى ممتدة بين بلدتى دول وافرانش .

فى ظلام هذه الغابات وجد التمرد على الثورة الفرنسية مرعى خصيبا .. وكان أهلها من أشد الثائرين على الجمهورية الفرنسية والمناضلين ضدها ، وهم الذين ابلوا أكبر البلاء فى حروب « فنديه » .

وكان أهل هذه المقاطعة ينقسمون الى ثلاث طوائف ، فمنهم الفلاحون الذين يعيشون على ثمار حقولهم ، ومنهم أهل الغابات الذين يقتنصون الحيوانات ويأكلون لحومها ويصنعون أرديتهم من جلودها . ومنهم الصيادون الذين ينتشرون على المناطق الساحلية .

كانوا جميعا يشتركون فى صفة واحدة ، هى العيشة الفطرية التى تقدس الارض والمالك ، ولا يتجاوز تفكيرهم مطالب الحياة الدنيا .

ولما كانت ارضهم هدفا لهجوم المغيرين والفاتحين من اقدم العصور فقد كانوا يلجأون الى ظلام الغابات ، وانشأوا فى ارضها كهوفا ومخابىء تمتد تحت الأرض كالسراديب ، تحجب مداخلها الأحجار وأغصان الأشجار ، واليها كانوا يلجأون كلما داهمهم خطر أو اغار عليهم مهاجم . وهكذا تعرضوا فى كافة ادوار حياتهم للاعتداء وما جلبه من الخوف الدائم والقلق المتصل . ولما جاءت الثورة الفرنسية واكتسب ظاهرها طابع العنف والتخريب وسفك الدماء ،

ثارت مخاوف هؤلاء الفلاحين وعدوها من قبيل الغزو الذى استهدف له اسلافهم ، فرفعوا فى وجهها راية التمرد والعصيان ، وقاوموها بكل عنف واستماتة .

كان السرداب الواحد يكفى ستة أشخاص . وهى جميعا تمتد تحت الأرض فى طول الغابة وعرضها . وكانت الغابة الواحدة تضم جيشا قوامه سبعة او ثمانية آلاف مقـاتل . لا تراهم العين . ولا يشعر بوجودهم احد . وباشارة خاصة كانوا يبرزون فجأة من جحورهم . فكأنهم جيش من النمل انتشر من خلال الشقوق .

والى جانب هذه السراديب كانت توجد اكواخ منخفضة السقوف تحجبها الأغصان الكثيفة المتشابكة ، يأوى اليها النساء والأطفال ، ويقيم فيها الرجال وقت السلم ، أما وقت الحرب فكانوا يلجأون الى السراديب .

ومع ان هؤلاء المقاتلين كانوا يحتجبون تحت الأرض أياما واسابيع فانهم كانوا دائمى الاتصال والترابط ، وكانت الأنباء تتوارد عليهم بسرعة وانتظام عجيبين .

كان لهم رسل يجوبون الغابات ويتنقلون بخفة الطير من قرية الى قرية ومن غابة الى غابة ، تعلوهم بلادة ظاهرة ، لكنهم يحملون عصيا مجوفة فيها الرسائل والأنباء المراد نقلها واذاعتها .

وفى احد الأيام انضم الى صفوفهم جمهورى خائن زودهم بمئات الجوازات الرسمية البيضاء ، فكانوا يضعون فيهـا ما يشاءون من الأسماء والصفات . وبهذه الوسيلة استطاع رسلهم أن يتنقلوا بين صفوف الجمهوريين وتحت أنظارهم فى يسر وسهولة .

كانت أسلحتهم مكونة من الخناجر والسيوف والحراب والمناجل والعصى والبنادق . ولم يكونوا يعرفون المدافع فى أول عهدهم بالثورة على الجمهورية . بل كانوا يفزعون منها . ولما أتيح لهم أن يغنموا مدفعا فى احدى المواقع ويقـدروا تأثيره وفـائدته ، اتجـه همهم الى غنم ما يستطيعون من المدافع ، وتوافر لهم منها عدد كبير . كما ان انجلترا مدت زعماءهم بطائفة من المدافع .

وكانوا اذا اشتبكوا فى موقعة يبرزون فجأة من ظلمات الغابة ، ويثبون على أعدائهم صارخين صرخات وحشية ، وينهالون عليهم قتلا وذبحا . ثم يختفون فجأة كما جاءوا ، ولا يبقى من دليل عليهم سوى آثار التخريب والدمار .

كانت جيوش « فنديه » تضم نصف مليون مقاتل ، واذا كانت

ثورتها على الجمهورية قد صمدت زمنا ما ، وكانت شوكة فى جنب الجمهورية ، فانها فشلت آخر الأمر . وانهزمت .

واذا كانت غيرها من الثورات مثل ثورة سويسرا قد نجحت . فالفارق بارز بين ثورة الجبال وثورة الغـابات . فان ثورة سويسرا تهدف لنشدان المثل الأعلى ، أما ثورة « فنديه » فكانت قائمة على التعصب ، والفرض ... الأولى تتسامى ، والثانية تزحف . الأولى تلتمس الحرية . والثانية تطلب العزلة . الأولى ترفع رأسها فى السماء والثانية تدس رأسها فى الغابة . الأولى شاهقة . والثانية غائرة .

كانت ثورة « فنديه » قائمة على التعصب للاقليم ، ضد الوطن . والتشييع للفكرة المحدودة ضـــد الرأى الحر المتشعب . ولذلك اخفقت .

الفصل الثامن

فى ميادين (فنديه)

- ١ -

المسافر

فى أصيل يوم من أيام يوليو ترجل مسافر عن ظهر جواده ووقف عند مدخل الخان الكائن فى نهاية الطريق الممتد من بلدة « افرانش » فى مقاطعة « بريتانى » .

كان القادم يلتف بعباءة ويلبس قبعة رحبة تعلوها شـارة مثلثة الألوان ، وهى شعار خطر فى هذه المناطق المجاورة للغابات .

فتح باب الخان عند سماع صوت حوافر الجواد ، وخرج صاحبه لاستقبال القادم ، حاملا بيده مصباحا ، ولمـا راى الشارة المثلثة قال :

— هل تنزل هنا ايها المواطن ؟

— لا .

— والى اين تذهب اذن ؟

— الى بلدة « دول » .

— فى هذه الحالة أنصحك بالعودة الى « افرانش » .

— وما السبب ؟

— لان القتال دائر فى « دول » .

فقال المسافر : آه !

ثم استطرد : قدم أكلا للجواد .

رفع صاحب الخان العنان من فم الجواد وقدم اليه العلف .

ثم استأنف حديثه مع القادم :

— هل هذا الجواد لك ايها المواطن ؟

— نعم . انى ابتعته بمالى الخاص .

— من اين جئت ؟

— من باريس .

— هل جئت من باريس رأسا ؟

— لا .

— هذا صحيح .. فالطرق مقفلة .. لكن مركبات البريد لا تزال توالى سيرها .

— لغاية (النسون) .. وقد نزلت منها هناك .

— ستختفى مركبات البريد من فرنسا بعد زمن قصير .. الجواد الذى يساوى ثلثمائة فرنك يباع الآن بضعف ثمنه .. وعلف الجياد يباع بأغلى الأثمان .. انى كنت من قبل أدير خانا للبريد ، لكنى الآن اشرف على مطعم ، ان مائتين من أصحاب خانات البريد الثلثمائة قد اعتزلوا هذه المهنة ، هل سـافرت ايهـا المواطن وفقا للتعريفة الجديدة ؟

— طبقا لتعريفة مايو .. وهى الأخيرة .

— لابد أنك دفعت ثمنا كبيرا أثناء انتقالك فى مركبات البريد .. هل ابتعت جوادك من (النسون) ؟

— نعم .

— وهل ركبت طول النهار ؟

— منذ الفجر .

— وامس ؟

— وقبل أمس .

— انى أرى عليك مظاهر التعب فى الواقع .. اسمع نصيحتى واسترح بعض الوقت .. ان جوادك شديد الاعياء .

— من حق الجياد ان تتعب .. اما الرجال فلا .

تفرس صاحب الخان فى وجه المسافر ، فرأى فيه دلائل الرزانة والهدوء والصرامة ، يكللها شعر أشيب .

القى صاحب الخان نظرة على الطريق المقفر ، وقال :

— وهل تسافر وحدك بهذا الشكل ؟

— معى حارس .

— أين هو ؟

— سيفى ومسدساى .

وحمل صاحب الخان دلوا من الماء قدمه الى الجواد ، وقال فى

نفسه وهو يتطلع الى هيئة المسافر : مهما يكن فمظهره اقرب الى القسس .

قال المسافر : تقول ان القتال دائر فى بلدة (دول) ؟

— نعم .

— ومن المتقاتلون ؟

— نبيل سابق ضد نبيل سابق .

— ماذا تقول ؟

— نبيل سابق جمهورى ، ضد نبيل سابق ملكى . والغريب فى هذا القتال ان الاثنين من اسرة واحدة .

اصغى المسافر بعناية ، واستطرد صاحب الخان :

— احدهما شاب والثانى كهل . الأول ابن الأخ والثانى هو العم . العم ملكى ، وابن الأخ جمهورى . العم يقود البيض . وابن الأخ يقود الزرق .. آه ! ثق أنهما لن يعرفا معنى الرحمة فى هذه الحرب . هى حرب هائلة حتى الموت .

— الموت ؟

— نعم أيها المواطن .. هل تحب أن ترى التحيات التى يتبادلانها ، هنا اعلان نشره العم الكهل فى كل مكان ، على جدران البيوت وفوق جذوع الأشجار ، وقد وجدت صورة منه على بابى .

رفع صاحب الخان مصباحه وادناه من رقعة مربعة ملصقة على الباب ، فطالع المسافر فيها ما يلى :

« يتشرف الماركيز دى لانتناك بابلاغ ابن أخيه الفيكونت جوفان بأنه اذا اسعده الحظ باعتقاله ، فسيعدمه بالرصاص » .

واردف صاحب الخان : وهذا هو الجواب . واشار الى اعلان آخر ملصق بالباب الثانى . فطالع المسافر ما يلى فى ضوء المصباح .

« ينذر جوفان ، لانتناك بأنه اذا أسره فسيأمر باعدامه بالرصاص » .

وقال صاحب الخان : الصق الاعلان الأول على بابى أمس ، والصق الثانى هذا الصباح ، دون انتظار الرد .

قال المسافر فى صوت خافت كلاما سمعه صاحب الخان دون أن يفقه مدلوله ، وكأن المسافر يناجى نفسه .

— نعم . هى اكثر من مجرد حرب أهلية . هى حرب عائلية . هى لازمةومحمودة . لابد من دفع هذا الثمن لتوطيد حرية الشعب توطيدا نهائيا .

ورفع المسافر قبعته وحيا الاعلان الثانى الذى ما فتىء يحدق فيه . فقال صاحب الخان :

— لا شك انك فهمت الآن وضع المسألة أيها المواطن . نحن فى المدن والبلدان الكبيرة موالون للجمهورية . اما فى الأرياف فهم ضدها . هى حرب أهل المدن ضد الفلاحين . والنبلاء والقسس يشدون ازرهم .

فقاطعه المسافر : ليسوا كلهم .

— بلا ريب أيها المواطن ، فأمامنا هنا فيكونت ضد ماركيز .

ثم قال صاحب الخان فى نفسه : وانا واثق انى اخاطب احد القسس .

سأل المسافر : ومن منهما متفوق على الآخر ؟

— الفيكونت حتى الآن . لكنه مضطر للنضال الشاق ، فان القائد الكهل قوى الشكيمة ، شديد البأس . وكلاهما من أسرة جوفان ، اشراف هذه المقاطعة . وهذه الأسرة ذات فرعين ، فرعها الأكبر على رأسه الماركيز دى لانتناك ، اما الفرع الأصغر فعلى رأسه الفيكونت جوفان . وهذان الفرعان يتقاتلان الآن احدهما ضد الآخر .

وهذا الماركيز لانتناك شديد النفوذ فى اقليم (بريتانى) ، والفلاحون يضعونه فى مصاف الأمراء . وما كاد يمضى يوم واحد على نزوله الى الشاطىء حتى انضم اليه آلاف من المقاتلين ، وفى ظرف اسبوع انضمت اليه ثلاث مقاطعات كاملة . ولو استطاع ان يصل بجيوشه الى الساحل لنزل الانجليز الى البر . لكن جوفان كان قريبا لحسن الحظ ، ومن عجائب الصدف أنه ابن اخيه . وهو قائد الجيش الجمهورى ، وسرعان ما صد عمه واوقف زحف جيوشه .

وشاء حسن الحظ كذلك حينما وصل لانتناك وأمر بذبح طائفة كبيرة من الأسرى ان كان بينهم امرأتان امر باعدامهما رميا بالرصاص ايضا ، وكان لاحداهما ثلاثة أطفال تبنتهم فرقة من باريس معروفة باسم الفرقة الحمراء ، فثارت ثائرة جنود الفرقة المذكورة ، وأبلوا فى القتال الدائر احسن البلاء ، مع أن عددهم يسير .. وقد اندمجوا اخيرا فى الجيش الذى يقوده جوفان .. ولا يمكن ان يقف فى طريقهم حائل ، وهم مصممون على الثار للمرأتين واستعادة الأطفال .. ولا يعلم احد ما يثير الجنود الباريسيين ويضرم نار الهياج فى صدورهم .. ولو لم يتصل أولئك الاطفال بموضوع القتال لما تطور على النحو الحالى .

ان الفيكونت شاب باسل طيب القلب .. اما الماركيز الكهل فهو رجل صارم شديد القسوة .. الا تتناول شيئا من الطعام ايها المواطن ؟

– انى احمل بعض الطعام والشراب .. لكنك لم تخبرنى بما يحدث فى بلدة (دول) .

– هذا هو ما يحدث .. ان جوفان يقود جيش الساحل .. كان لانتناك يرمى الى اثارة تمرد عام شامل فى مقاطعتى (بريتانى) و (نورماندى) قرب البحر ، ويفتح الباب امام الجيش الانجليزى ؛ ثم يتقدم بجيش عدته عشرون الفا من الانجليز ومائتا الف من الفلاحين، فجاء جوفان وافسد هذه الخطة .. كان الساحل فى يده ، فأرغم لانتناك على التراجع الى الداخل وطرد الانجليز فى البحر .

وكان لانتناك هنا ، فأخذ جوفان يتعقبه وينتزع منه مواقعه واحدا بعد الآخر حتى حال بينه وبين الوصول الى جرانفيل على الساحل ، وهو يرمى الى حبسه فى غابة فوجير كما كان ومحاصرته .. وكان كل شيء حتى امس يسير سيرا مرضيا .. وفجأة قام القائد الكهل بمناورة بارعة . فقد تواترت الأنباء بأنه يسير قاصدا الى بلدة (دول) .. واذا استولى على هذه البلدة ونصب مدفعه على جبل (دول) لتهيأت له منطقة ينزل منها الانجليز الى البر ، ولخسر جوفان كل شيء .

لكن جوفان جندى باسل مقدام ، وسرعان ما جمع بعض جنوده وتقدم الى الأمام دون ان ينتظر أمرا .. وفى الوقت الذى يهاجم فيه لانتناك بلدة (دول) ، يعمد جوفان الى مهاجمة لانتناك نفسه .. وفى هذه البلدة يدور القتال الآن بين الاثنين .. وهو قتال رهيب مروع .

– كم يستغرق الوصول الى (دول) ؟

– ان المسافة يقطعها الجيش بمدافعه فى ثلاث ساعات على الاقل .. لكنهم الآن فيها .

ارهف المسافر سمعه وقال :

– يخيل الى فى الواقع انى اسمع صوت المدافع .

اصغى صاحب الخان بدوره وقال :

– نعم ايها المواطن .. وكذلك دوى الرصاص .. ان المعركة بدات .. ويحسن بك ان تمضى الليل هنا .

– لا يمكن ان اتوقف .. لابد ان اواصل السير .

– انت مخطىء .. انا لا اعرف مهمتك .. لكنك تقوم بمجازفة كبيرة .. واذا لم تكن هذه المهمة متصلة بأعز ما تملكه فى الدنيا .

فقال المسافر : فى الواقع هى كذلك .

– تتصل بولد لك مثلا ؟

فقال الراكب : تكاد تكون كذلك .. والآن اعد العنان الى الجواد .. بكم انا مدين لك ؟

نقد المسافر صاحب الخان المبلغ الذى طلبه ثم امتطى جواده فقال له صاحب الخان :

– ما دمت تصر على الذهاب فاسمع نصيحتى .. انت ذاهب الى « سان مالوا » .. فاذا كان الأمر كذلك فلا تذهب عن طريق (دول) امامك طريقان : طريق (دول) وطريق الساحل ... ويكاد الطريقان يتساويان طولا .. وعند نهاية هذا الشارع ستجد مفترق الطريقين .. فأما طريق « دول » فيتفرع الى اليسار ، واما طريق الساحل فالى اليمين . استمع جيدا لنصيحتى .. اذا ذهبت من طريق « دول » فستقع فى وسط المذبحة .. ولذلك انصحك بالسير فى الطريق الأيمن .. طريق الساحل .

فقال الراكب وهو يهمز جواده : شكرا :

ابتعد الراكب فوق جواده ، واختفى عن نظر صاحب الخان فى الظلام . ولما وصل المسافر الى مفترق الطريق سمع صوت صاحب الخان يناديه من بعد : سر الى اليمين .

لكنه سار الى اليسار .

– ٢ –

مفاجأة

« دول » بلدة قديمة فى مقاطعة « بريتانى » ذات مبان منشأة على النظام القوطى ، يخترقها شارع واحد طويل تمتد المساكن على جانبية بواجهاتها البارزة وشرفاتها القائمة على أعمدة . اما باقى البلدة فهو شبكة من الأزقة والمنعطفات تتصل جميعا بالشارع الرئيسى .

كانت هذه البلدة مكشوفة بغير أسوار ولا أبواب ، يشرف عليها جبل « دول » ، ويسهل غزوها . غير أن منازلها كانت فى ذاتها

معاقل يحتمى بها المدافعون . وكان للبلدة سوق قديمة تتوسطها . كانت « دول » كما قرر صاحب الخان فى الفصل السابق مسرحا لمعركة طاحنة تدور فى أرجائها . فقد اجتاحها البيض فى الصباح . وما كاد يأتى المساء حتى انقض الزرق على البيض يحاولون اجلاءهم عن البلدة وانتزاعها من قبضتهم . وكان جيش البيض مكونا من ستة آلاف من المقاتلين . أما الزرق فلم يتجاوز عددهم الفـــا وخمسمائة .. واعجب ما فى الأمر ان القـــلة هى التى هاجمت الـكثرة .

اما جيش البيض الذى يناضل عن الملكية فكان خليطا من الفلاحين واهل الغابات ، ليس لهم نظام عسكرى معروف ولا أسلحة موحدة ، غير انهم كانوا مستميتين مشهورين بالشراسة والاستبسال .

واما جيش الزرق الذى يمثل الجمهورية فكان منظما تام التدريب على الفنون العسكرية ، مزودا بأسلحة حديثة . وكانوا يشاركون اعداءهم فى شراستهم واستماتتهم .

وكان على رأس الجيش الجمهورى القائد جوفان . وهو شاب فى الثلاثين من عمره ، شديد البسالة والاقدام ، يتقدم جنوده شاهرا سيفه لا يبالى ما يصيبه ، ويضرب لهم احسن الأمثال فى احتمال الجندى وصبره على اهوال الحرب وويلاتهـــا . وهو الى جانب بسالته ، وديع الأخلاق ، طيب القلب ، راجح الفكر ، ذو نزعات فلسفية .

وكان لانتناك قائد الجيش الملكى جنديا كاملا مثل جوفان . غير انه كان يفوقه جراة واقداما . ولهذه المسألة تعليلها الطبيعى . فان لانتناك فى دور الكهولة ، قريب من القبر ، لا يبالى أكان الموت ام الحياة نصيبه . ومن هنا اصطبغت أعماله الحربية بطابع المغامرة الشديدة والبراعة . وكان الى هذا ناقمـا على جوفان لقتاله ضده أولا ولكونه ابن أخيه ووريثه الوحيد ثانيا ، ولذلك صمم على ان يقتله بلا تردد اذا وقع فى قبضته .

كان لانتناك يعرف ان جنوده وان كانوا شجعانا مغامرين ، الا انه تنقصهم الخبرة العسكرية اللازمة فى الحروب الكبيرة . ولذلك كانت خطته موجهة الى ايجاد منفذ على الساحل تنزل منه الجنود الانجليزية المنظمة ، حتى اذا تم له ذلك تصدى لمنازلة الجمهورية جامعا بين الحرب النظامية والحرب الوحشية . ولما راى ان الاستيلاء على بلدة « دول » يمكنه من نصب مدافعه على الجبل ، لم يتردد فى الهجوم على هذه البلدة .

فاجأ لانتناك « دول » بجيشه الكبير ، واستولى على البلدة بغير مقاومة ، ولجأ السكان الى بيوتهم وتحصنوا فى داخلها . ثم تفرق رجاله فى كافة نواحى البلدة . وتخلوا عن مدافعهم واسلحتهم . فمنهم من ذهبوا الى الكنائس ، ومنهم من راحوا يطهون طعامهم فى الهواء الطلق اذ لم تكن لهم خيام ولا معسكرات . بينا أسرع لانتناك مع طائفة من رجال المدفعية لتفقد جبل « دول » استعدادا لنصب المدافع على قمته وترك قيادة الجيش مؤقتا الى نائبه ايمانوس .

كان ايمانوس مقاتلا شديد البأس مشهورا بشراسته ووحشيته . غير انه كانت تنقصه الدراية الحربية الفنية . ولم تتجاوز الاحتياطات التى اتخذها بعد ذهاب لانتناك سوى تعيين بعض الحراس دفعـا للمفاجآت .

وفيما كان لانتناك عائدا الى البلدة فى المساء بعد أن اتم معاينة المواقع التى ينصب فيها مدافعه فوق جبل « دول » سمع وهو فى منتصف الطريق الى البلدة دوى مدفع . ولما التفت امامه شاهد دخانا أحمر يرتفع من الشارع الرئيسى . فادرك فى الحال ان هجوما وقع على رجاله ، وان معركة جديدة تدور فى البلدة .

استحث لانتناك جواده . وصادف فى الطريق بعض السكان يفرون مذعورين . ولمـا استطلعهم الخبر قرروا ان الزرق هجمـوا على البلدة .

- ٣ -

جيوش صغيرة ومعارك عظيمة

تفرق رجال لانتناك فى البلدة بعد استيلائهم عليها . كانوا تعبين من اثر الجهد الذى بذلوه .. فانصرفوا لتناول الطعام والشراب ولما جاء المساء تمددوا فى الشارع الرئيسى فوق مهماتهم ، واستسلموا للنوم .

وفجأة ، لمح بعض الجنود الذين لم يناموا بعد ثلاثة مدافع تصوب عند مدخل الشارع .

كانت هذه مدفعية جوفان . وقد فاجأ رجاله الحراس القائمين عند مدخل الشارع وقضوا عليهم ، وبات المدخل فى أيديهم .

وثب أحد الفلاحين مرتاعا صارخا واطلق بندقيته . فجاوبه قصف

مدفع . وفى اللحظة التالية استيقظ النيام مذعورين مروعين ، واخذوا يطلقون بنادقهم فى غير وعى وعلى غير هدف معين ، حتى كانوا يصيبون بعضهم بعضا . وارتفع الصراخ من كل مكان . ونفر السكان من بيوتهم مذهولين جزعين يتنادون ويتصايحون . وجمحت الخيول واندست مركبات المهمات وحاملات المدافع فى وسط الميدان. فاختلط الحابل بالنابل ، وسادت الفوضى والرعب .

وفى ابان هذا الاضطراب المروع ، كانت مدافع جوفان ترسل عليهم نيرانها حامية ، فأخذ الفلاحون يتساقطون صرعى كالفراش المحترق .

على ان الفلاحين لم يلبثوا أن تغلبوا على تأثير هذه المفاجأة ، فجمعوا صفوفهم وانسحبوا الى السوق وتحصنوا خلف أعمدتها ومبانيها المتعددة . وجمعوا أمامهم كل ما استطاعوا جمعه من الصناديق والأمتعة ، فجعلوا منها استحكامات ووقفوا خلفها يرسلون على أعدائهم وابلا من نيران بنادقهم . ولم يستطيعوا استخدام المدافع التى كانت معهم لغياب ضباط المدفعية فى صحبة لانتناك .

تحصن الفلاحون فى السوق ، وصمدوا للهجوم المفاجىء الذى قام به جوفان . وتحسن موقفهم .

لم يكن جوفان يتوقع هذه المفاجأة . وخاف الهزيمة فهبط من فوق جواده . ووقف يصوب نظره فى الظلام ، فى ضوء مشعل ينير بطاريته . ولم ينتبه لانشغاله بالتفكير فى الموقف الى انه كان فى هذا الموقف ظاهرا لأعين العدو المتحصن ، هدفا لرصاصه .

وفجأة دوى من معسكر الأعداء صوت كقصف الرعد ، واستقرت قذيفة فى بيت وقف جوفان فى ظله . ثم اعقبتها قذيفة ثانية استقرت فى جدار قريب منه ، وثالثة اطارت قبعته .

هتف أحد جنود جوفان :

— هم يقصدونك أيها القائد !

اطفىء المشعل بسرعة . وانحنى جوفان فوق الارض وتناول قبعته كأنه فى حلم .

والواقع أن جوفان كان مقصودا بهذه القذائف . وكان الآمر بها هو لانتناك ، فانه وصل الى ميدان المعركة وانضم الى رجاله خلف الاستحكامات التى انشأوها .

وبادر اليه ايمانوس قائلا :

— هوجمنا يا مولاى !

— ممن ؟

— لا ادرى .

— هل الطريق الى (دنيان) مفتوح ؟

— اظن ذلك .

— لابد ان ننسحب .

— تم هذا فعلا . فان عددا كبيرا من رجالنا هربوا .

— يجب الا نهرب . بل يجب أن نتقهقر بانتظام . لم لا تستخدمون المدافع ؟

— طاش صواب الرجال . كما ان ضباط المدفعية لم يكونوا موجودين .

— هانذا عدت للاشراف على كل شىء .

— مولاى .. انى ارسلت الى (فوجير) جميع الأمتعة والنساء وكل ما يمكن الاستغناء عنه .. ماذا نفعل بالأطفال الثلاثة الأسرى ؟

— هم غنائمنا .. ارسلهم الى حصن (لاتورج) .

أسرع الماركيز على اثر هذه المحادثة الى منطقة الاستحكامات .. وامر رجاله بنصب مدفعين فى فتحات اختارها .. وفيما هو يراقب معسكر الأعداء لمح جوفان ، فهتف : هذا هو !

حشا الماركيز احد المدفعين بنفسه ، واطلقه بيده ثلاث مرات جاعلا جوفان هدفه ، غير أنه اخطأه فى كل مرة ، وفى المرة الثالثة تمكن فقط من اسقاط قبعته .

زمجر لانتناك ساخطا .. وفى اللحظة التالية انطفأ المشعل ، وساد الظلام امامه ، فتخلى عن المدفع ، وأمر رجاله باصلاء معسكر جوفان نارا حامية من المدفعين .

لم يسكت جوفان من ناحيته .. فقد تطور الموقف ، ورأى اعداءه يستخدمون المدافع ، هذا الى ان عددهم كان اضعاف عدد رجاله ، واذا فطنوا الى هذه الحقيقة ووجدوا لهم منفذا من هذا الحصار فقد تنقلب الكفة ، ويتغير موقف لانتناك من الدفاع الى الهجوم .

لم يكن يستطيع ان يهجم على اعدائه من الامام ، فلو فعل لتعرضوا جميعا للهلاك ، وأخذ يفكر فى خطة للخلاص من هذه الورطة .

كان جوفان من اهل هذا الاقليم ، خبيرا بطبيعته ، وكان يعرف بوجود شبكة من الأزقة المتداخلة خلف السوق التى تحصن فيها رجال لانتناك ، ولذلك التفت الى نائبه جيشام وقال له :

— جيشام .. ساترك لك القيادة ، اطلق المدافع باستمرار وبكل

سرعة ، اشغل أولئك الرجال ولا تدعهم يستريحون لحظة :
فقال جيشام : فهمت أيها القائد .
— احشد جميع الرجال فى صفوف متراصة ، ولتكن بنادقهم على تمام الاستعداد .
— سمعا وطاعة .
واستطرد جوفان : عندنا تسعة من جنود الطبول . ابق معك اثنين ، واعطنى سبعة .
واصطف الجنود السبعة صفا واحدا أمام جوفان فى سكون ، فهتف جوفان :
— يا جنود الفرقة الحمراء !
تقدم اثنا عشر جنديا بينهم جاويش ، فقال :
— اريد الفرقة كلها .
فأجاب الجاويش : ها هى كلها .
— أنتم اثنا عشر .
— لم يبق منا غير هذا العدد .
فقال جوفان : لا بأس .
كان الجاويش هو رادوب ، ذلك الجندى الطيب القلب الذى تبنى باسم (الفرقة الحمراء) الأطفال الثلاثة الذين عثرت عليهم مع امهم فى غابة (سودراى) . ومن حسن حظه انه لم يكن مع الباقين من رجاله بين سائر جنود الفرقة التى اغارت على مزرعة « زهرة الشاطىء » ثم داهمها البيض واعدموا رجالها كما مر فى الفصول السابقة .
امرهم جوفان بخلع احذيتهم ، ففعلوا . وكان عددهم جميعا ، وفى جملتهم جوفان ، عشرين رجلا .
هتف فيهم جوفان : اتبعونى صفا واحدا . جنود الطبول خلفى مباشرة . وباقى الفرقة وعلى راسها الجاويش رادوب بعد ذلك .
سار جوفان على راس الجميع بينما كان اطلاق النار مستمرا من الجانبين واخذوا يتسللون فى الأزقة الضيقة فى سكون تام ، ولم يصادفهم احد فى طريقهم ، فقد لجأ الناس الى بيوتهم واحتموا فيها ، وانهمك الجنود البيض فى القتال فلم يلتفتوا الى ما عداه . وكان الشارع الرئيسى مسرحا لمعركة جهنمية طاحنة .
ظل جوفان يتقدم رجاله نحو ثلث ساعة وهو لا يخطىء طريقه فى الظلام . واخيرا وصلوا الى نهاية زقاق ضيق يفضى الى الشارع

العمومى حيث توجد السوق . لكنهم جاءوا من الناحية الخلفية ، حيث وقف البيض مولين ظهورهم اليه ، منهمكين فى القتال الدائر امامهم .
كانوا عشرين فى مقابل خمسة آلاف من البيض .. لكن هؤلاء لم يكونوا متحصنين من الخلف . وسرعان ما القى جوفان أوامره الى الجاويش رادوب بصوت خافت .. فوقف جنود الفرقة الحمراء الاثنا عشر صفا واحدا فى مدخل الزقاق ، ورفع جنود الطبول عصيهم منتظرين الاشارة .
كان اطلاق المدافع متقطعا .. وانتهز جوفان فترة بين طلقتين ، فصاح فى صوت تردد فى وسط السكون وهو شاهر سيفه :
— مائتان الى اليمين ! . مائتان الى اليسار ! . الباقى فى الوسط .
— وعلى اثر هذا النداء اطلقت البنادق الاثنتا عشرة ، وقرعت الطبول السبعة مرة واحدة .
ثم صاح جوفان بأعلى صوته :
— اشهروا حرابكم ! .. اهجموا عليهم !
كان لهذه المناورة تأثير شديد .. فقد اخذ الفلاحون على غرة ، واعتقدوا بوجود جيش جديد خلفهم .. وفى نفس اللحظة اصدر جيشام امره لرجاله من الأمام ، فهجموا مستبسلين على البيض الذين ذهلوا وهم متحصنون خلف استحكاماتهم .. ووجدوا أنفسهم بين نارين .
فى هذه المواقف يتضاعف التأثير ، ويخيل للانسان ان صوت الرصاصة هو دوى مدفع ، هذا الى ان الفلاحين سريعو التأثر . وسرعان ما استولى عليهم ذعر شديد ودب الرعب فى قلوبهم ، وساد الاضطراب صفوفهم .. واركنوا الى الفرار والنجاة .
وما هى الا دقائق معدودة حتى اخليت السوق من الفلاحين ، واطلقوا سيقانهم للريح من كافة المنافذ المؤدية الى خارج البلدة . وعبثا حاول ايمانوس وسائر الضباط ايقافهم .
رأى الماركيز دى لانتناك هزيمة رجاله بعينيه .. ولما يئس من الموقف اتلف المدافع بيديه .. واخذ يتقهقر ببطء وهدوء وهو يقول لنفسه :
— من المؤكد ان الفلاحين لن يصمدوا .. لابد من الاستعانة بالانجليز .

- ٤ -

المرة الثانية

تم النصر لجوفان .. والتفت الى جنود « الفرقة الحمراء » قائلا :

ـ انتم اثنا عشر .. لكنكم بالف .

واسرع جيشام لمطاردة الهاربين بأمر جوفان ، وأسر منهم عددا كبيرا .

واضيئت المشاعل فى كافة نواحى البلدة واجرى فيهـــا تفتيش دقيق . ومن لم يتكمن من الافلات من جنود البيض أعلن الخضوع والتسليم . وامتلأت ارض الشارع العمومى بجثث القتلى والجرحى .

ولاحظ جوفان أثناء انسحاب البيض رجلا منهم قوى البنية اخذ يحمى تقهقر زملائه ، دون أن يحاول النجاة بنفسه .. وكان يطلق النار احيانا من فوهة بندقيته ، واحيانا يستخدمها كهراوة يشج بقاعدتها الرءوس .. ولما تحطمت البندقية القـــاها جانبا وامسك بمسدسه فى احدى يديه وبسيفه فى اليد الثانية ، فلم يجرؤ احد على الاقتراب منه .

وفجاة رآه جوفان يترنح ويرتمى فوق أحد الأعمدة القريبة منه ، فقد جرح الرجل أخيرا ، غير أنه لم يشأ أن يتخلى عن مسدسه وسيفه فتأبط جوفان سيفه وتقدم من هذا الرجل قائلا :

ـ سلم نفسك .

تفرس الرجل فى وجه جوفان .. كان الدم ينزف منه بفزارة ويكون بركة تحت قدميه .. واستطرد جوفان قائلا :

ـ انت اسيرى .

بقى الرجل صامتا ، فقال جوفان :

ـ ما اسمك ؟

فأجاب الرجل : اسمى (الخيال الراقص) .

فقال جوفان : انت رجل باسل .

ومد له جوفان يده .

هتف الرجل : يحيا الملك !

وفى لمح البصر استجمع مابقى له من قوة ورفع يديه معا واطلق مسدسه على جوفان وصوب الى رأسه ضربة قاتلة بحد سيفه .

فعل الرجل هذا بخفة النمر .. ولكن شخصا آخر كان أسرع منه .

فقد وصل منذ بضع دقائق رجل يركب جوادا ولم يفطن احد الى قدومه وشاهد الفلاح يشهر سيفه ومسدسه .. فاندفع بجواده بينه وبين جوفان .. ولولا هذه الحركة لقضى على جوفان وكان فى عداد الأموات .

استقرت رصاصة المسدس فى الجواد .. وتلقى الراكب ضربة السيف وهوى الاثنان معا .

أما الفلاح فسقط بدوره على الأرض .

أصابت ضربة السيف الراكب فى وجهه .. فتمدد فوق الأرض لا حراك به .. أما الجواد فقد أسلم الروح .

دنا منه جوفان قائلا : من هذا الرجل ؟

وجعل يتفرس فى وجهه .. غير ان الدماء نزفت غزيرة من الجرح الذى أصابه وتخضب وجهه ، فاستحال تمييز ملامحه .. ولم يبد منه غير شعره الاشيب .

استطرد جوفان قائلا : هذا الرجل انقذ حيـــاتى . فهل منكم من يعرفه ؟

فأجاب احد الجنود : أيها القائد .. هو جاء منذ بضع دقائق .. وقـــد رأيت دخـــوله الى البلدة .. وكان آتيا من اتجـــــاه بلدة (افرانش) .

أسرع طبيب الجيش بأدواته وتولى فحص الجريح الذى كان غائبا عن رشده ثم قال :

ـ هذا جرح يسير .. يمكن ان يلتئم بسهولة .. وسيشفى فى ظرف ثمانية أيام .

كان الجريح يرتدى عباءة وقبعة رحبة ذات شارة مثلثة الالوان ويحمل سيفا ومسدسين .. وجىء بنقالة وضع فوقها واخذ الطبيب ينظف الجرح ، وظهرت ملامح وجهه .. فتفرس فيها جوفان بدقة وقال :

ـ هل يحمل أوراقا ؟

فتش الطبيب جيوب الجريح واخرج من احدها حافظة اوراق قدمها الى جوفان ، وفى هذه اللحظة دب الانتعاش فى كيان الجريح بتأثير الماء البارد وأخذ يفيق من غيبوبته واختلجت أجفانه .

فحص جوفان حافظة الأوراق ، فوجد فيها رقعة مطوية من الورق

بسطها وطالع فيها الكلمات : « لجنة الامن العام المواطن سيموردان » .

هتف جوفان : سيموردان .

وما كاد الجريح يسمع هذا الاسم حتى فتح عينيه ، اما جوفان فاستولى عليه ذهول جنونى واستطرد :

سيموردان ! .. هو أنت ! .. انك انقذت حياتى للمرة الثانية !

تطلع اليه سيموردان بعينين يلمع فيهما بريق الفرح . فركع جوفان على ركبتيه بجانبه وهتف :

ــ استاذى !

فقال سيموردان : بل والدك !

ــ ٥ ــ

امل يتهدم

لم يتقابل كلاهما أعواما طويلة .. لكنهما كانا على اتصال روحى ، وتذكر كلاهما صاحبه كأنه فارقه منذ قليل .

حمل سيموردان الى المستشفى ، ووضع فى غرفة خاصة ، وخاط الطبيب الجرح ، واضطر جوفان أن يتخلف عنه تلبية للمشاغل المتعددة التى تستلزم تفرغه لها بحكم النصر الذى أحرزه ، وبقى سيموردان وحده فى الغرفة ، لكنه لم يستطع النوم ، فقد انتابته حمى المرض ، وحمى الفرح بلقاء جوفان .

لم يصدق سيموردان أنه وجد جوفان ثانية بعد طول الفراق . ولم يكن هناك حد لسعادته . فقد تركه طفلا . وقابله رجلا . بل وجده قائدا عظيما مظفرا وبطلا جريئا . وكان هذا النصر الذى أحرزه لحساب الشعب . كان جوفان عماد الثورة الفرنسية فى اقاليم « فنديه » ، وسند الجمهورية الحقيقى . وكان سيموردان وحده هو الذى صاغ هذا البطل ونفخ فيه من روحه . وقدمه للجمهورية .

راى سيموردان بعين الفكر أن جوفان يتسنم ذروة المجد شيئا فشيئا . فليس أمامه الا ان يحرز نصرا ثانيا كهذا ، فيتقدم سيموردان الى الجمهورية ويزكى هذا القائد الشاب المتفانى فى نصرتها ، وينصح بأن تلقى اليه مقاليد جيوشها ، وينصب قائدا عاما لقواتها .

طفت هذه الخواطر والأحلام على ذهن سيموردان حتى اذهلته عن نفسه واثلجت فؤاده . وفيما هو كذلك طرق سمعه صوت حوار يدور فى عنبر المستشفى المجاور لغرفته ، وعرف صوت جوفان الذى لم يمحه من ذاكرته رغم تعاقب الأعوام .

سمع احد الجنود يتقدم فى خطواته العسكرية ويقول بعد وقوف :

ــ أيها القائد . هذا هو الرجل الذى أطلق الرصاص عليك . انه انتهز فرصة انشغالنا عنه وزحف الى احد الأقبية وقد وجدناه وها هو امامك .

ثم سمع سيموردان بعد ذلك المحاورة التالية بين جوفان وبين الأسير :

ــ أنت مجروح ؟

ــ انا على استعداد تام للاعدام !

ــ احملوا هذا الرجل الى أحد الأسرة . ضمدوا جراحه . اعتنوا به . عالجوه حتى يشفى .

ــ اريد أن اموت !

ــ لابد أن تحيا . حاولت اغتيال حياتى . لكنى اعفو عنك باسم الجمهورية .

ظللت سحابة وجه سيموردان . وخيل اليه انه يفيق فجأة من حلم . وغمغم قائلا فى غم وانقباض .

ــ فى الحق هو ممن يستجيبون لمواطف الرحمة .

ــ ٦ ــ

جرح بارىء وقلب دام

ان مثل جرح سيموردان يبرأ بسرعة .. لكن هناك مخلوق كان جرحه اخطر وأدعى للقلق ، هو تلك المرأة التى اطلق عليها الرصاص وانتشلها المتسول تلمارش من بين اشلاء القتلى فى مزرعة « زهرة الشاطىء » .

كانت حالة ميشيل فليشار فى الواقع أخطر مما ظن تلمارش ، فقد وجد علاوة على الجرح الذى تهشمت بسببه احدى عظام كتفها ، جرحا ثانيا ناتجا من رصاصة اصابت احدى عظام الصدر قرب العنق .

لكن تلمارش كان بارعا فى التطبيب والتمريض ، فحمل المرأة الى عرينه فى الغابة ، وعكف على العناية بها ومداواتها بالعناصر الطبية الغامضة التى يعرف وحده سرها ، وبفضله عاشت المرأة ونجت من الخطر .

مضت اسابيع التأمت جروح المرأة فى أثنائها ، ودخلت فى دور النقاهة ، واستطاعت أن تغـــادر الكهف وتسير متوكئة على ذراع تلمارش وجلست تحت أشعة الشمس مستندة الى احدى الأشجار .

لم تكن المرة تتكلم فى أول مراحل النقاهة ، وكان تلمارش نفسه يمنعها من الـكلام اذا همت به ، لما تستلزمه جروح الصــــدر من الصمت والســكون ، على أنه كان يرى فى محياها انعكاس أفـكار مضطربة تجيش فى نفسها .

لكن تلمارش لم يتمالك فى هذا اليوم وهى جالسة فى ظل الشجرة بعد أن تم شفاؤها ان ساوره الابتهاج بنجاتها على يديه ، فقال لها :

ـ ها نحن على أقدامنا من جديد .. لم تعد بنا جروح بعد .

فقالت المراة : الا فى القلب .

ثم أردفت بعد قليل : اذن لا تعرف أين (هم) ؟ .

سألها تلمارش : من (هم) ؟

ـ أولادى .

تحير تلمارش ولم يدر بماذا يجيب . فكل ما يعرفه انه حمل هذه المراة وهى فى حالة الموت بعد ان علم ان لانتناك أمر باطلاق الرصاص عليها وانتزع منها أطفالها وحملهم الى حيث لا يعلم ، وعكف على تمريضها حتى تم لها الشفاء . هذا كل ما يعرفه . أما ما فعل لانتناك بالأطفال فهو ما يجهله تلمارش جهلا تاما .

تلاشت الابتسامة من فم تلمارش حينما سمع كلمة المراة الأخيرة ، وعادت المراة الى الاستغراق فى أفكارها . وفجأة التفتت اليه ، وهتفت مرة ثانية فى نبرات تشف على الحدة والغضب : أولادى !

اطرق تلمارش برأسه كمن يحس بجرمه . فقد كان يفكر فى هذه اللحظة فى الماركيز دى لانتناك الذى لم يكن يشعر حتى بوجوده ، وناجى نفسه بهذه الكلمات : ان النبيل يعرف الانسان وقت الضيق . فاذا ذهب عنه تنكر له وأدار ظهره .

ثم سأل تلمارش نفسه : لكن لماذا اذن أنقذت هذا النبيل ؟ فأجاب عن نفسه بهذه الكلمات : لانه كان من بنى الانسان .

واستغرق فى التفكير لحظة ثم استطرد : وهل أنا واثق حقا انه كذلك ؟

راح يردد كلماته السالفة : لو كنت أعرف !

طغت هذه الهواجس على نفس تلمارش ، ورأى أمامه لغزا تخبط فى ظلماته . ان الخير قد ينقلب شرا فى بعض الأحيان . فان الذى

ينقذ الذئب يقضى على الغنم . واحس تلمارش فى اعماق نفسه بانه أرتكب جريمة لا تغتفر . وان هذه الأم محقة فى نقمتها وغضبها .

تطلعت اليه المرأة بعينين مظلمتين وقالت :

ـ مهما يكن ، فلا يمكن أن تسير الأمور على هذا النحو .

فقال تلمارش وهو يضع أصبعه على شفتيه : صمتا !

لكنها استطردت : انك اخطأت بانقاذى . وانا ساخطة عليك لهذا السبب . ليتنى مت ، فكان محققا أن يتيسر لى لقاء اولادى حينذاك ، وكنت أعرف أين مقرهم . واذا كانوا يروننى ، فانى كنت اراهم واكون بقربهم .

تناول يدها وتحسس نبضها وقال :

ـ هدئى روعك . انك تتعرضين للحمى ثانية .

قالت فى خشونة : متى يمكن ان ارحل من هنا ؟

ـ ترحلين ؟

ـ نعم . أمشى !

ـ مستحيل . ليس هذا من الحكمة .

فاستحال صوتها الى الرقة وقالت :

ـ يمكنك ان تقدر أنه يستحيل ان أستريح وأنا فى هذه الحال . لم يكن لك أولاد . اما انا فكان لى . وهذا فارق جسيم . لا يمكن أن يحكم الانسان على شيء لا يعرفه . ألم يكن لك أولاد ؟

فأجاب تلمارش : لا .

ـ اما انا فلم يكن لى فى الدنيا سواهم . ما انا بدون أولادى ؟ أود ان أجد انسانا يفسر لى السبب فى حرمانى من اولادى . انى أشعر بالحوادث تجرى من حولى . لكنى لا افهمها . هم قتلوا زوجى . واطلقوا الرصاص على . لكنى لا أفهم شيئا !

فقال تلمارش : كفى .. ان الحمى تنتابك من جديد . لا تتكلمى .

نظرت اليه ثم لزمت الصمت . ومنذ هذا اليوم لم تعد تتكلم .

لزمت الصمت المطبق . وكانت تطيع تلمارش فى كل ما يوصيها به . لـكنها كانت تقضى الساعات الطــــوال مستسلمة لتأملاتهـا وهواجسها . وفهم تلمارش اتجاه افكارها . فترجمها بهذه الكلمات : اذا كانت شفتاها لا تنطقان ، فان عينيها تترجمان عن أفكارها . ان افـكارها تدور جميعا حول نقطـــة واحدة ، كانت أما . فلم تعد كذلك . كانت تحنو على أطفـــالها ، ففقدت هذه الصفة . وهى لا تستطيع أن تذعن للأمر الواقع وتستسلم للحقيقة الراهنة . هى

تفكر فى هذه الطفلة الرضيعة التى كانت تمتص حياتها ، وكانت مع ذلك سعيدة قريرة العين بها ، لانها من حياتها تمدها بحياة جديدة .

احترم تلمارش صمت المراة ولم يحاول أن يقطع سلسلة افكارها . فان عاطفـــة الامومة غريزة معقدة لا يمكن فهمها على ضوء العقل والتدليل . لـكنها غريزة بصيرة لا تضل ولا تخطىء .

وقال لها ذات يوم : من سوء الحظ انى متقدم فى السن ولا اقوى على السير الطويل . ولا تلبث قوتى ان تخور بعد ربع ساعة ، واضطر للراحة . ولولا هذا المانع لرافقتك فى السير . وربما كان من حسن الحظ الا افعل ، فانى اكون حملا ثقيلا عليك ، ولا افيدك بشىء . أن الزرق يرتابون فى شخصى . والفلاحون يعدوننى ساحرا .

وانتظر جوابها . لكنها لم تنبس بكلمة واحدة ، بل لم ترفع اليه عينيها ، وظلت غارقة فى تصوراتها وأحلامها .

وفى أحد الأيام رآها تلمارش تملأ كيسا بالكستناء ، ثم تأهبت للرحيل وهى تحدق بنظرها الى أعماق الغابة . فقال لها :

ــ الى اين تذهبين ؟

فأجابت بهذه الكلمات : انى ذاهبة للبحث عن اولادى .

ولم يحاول تلمارش ان يحجزها .

ــ ٧ ــ

مذهبــان

مضت بضعة اسابيع دارت فى اثنائها رحى الحرب الاهلية بين الزرق والبيض فى عنف واستماتة لا حد لهما . ولم يكن للناس حديث فى منطقة « فوجير » الا عن ذلك الصراع الهائل الدائر بين القائدين النبيلين ...

استمرت تلك الحروب الوحشية التى كان مجالهـــا فى ميادين « فنديه » لكن البيض اخذوا ينهزمون ويفقدون مواقعهم واحدا بعد الآخر ، وذلك بفضل الضربة البارعة الأولى التى وجهها اليهم القائد جوفان الشـــاب فى بلدة « دول » . ثم أعقب هذا الانتصـــار عـــدة انتصارات جديدة ...

لكن نشأت من هذه الانتصارات حالة معقدة جديدة . صحيح ان كفة الجمهورية بفضل جوفان رجحت فى هذه المنطقة من منـــاطق

« فنديه » . لكن الجمهور انقسمت على نفسها واختلفت فى شخصى جوفان وسيموردان .

تمثلت الجمهورية فى مذهبين متضـــادين ، مذهب الصرامة والارهاب ، ومذهب التسامح والرحمه . فالمذهب الاول يقوم على استعمال القسوة والشدة لاحراز النصر والثـــانى على التوسل بالرافة والرحمه لادراك هذه الغاية .

اما صاحب المذهب الصارم فهو سيموردان المندوب المفوض ، جاء من باريس مزودا بسلطة مطلقة وتفويض تام من « لجنة الامن العام » . شاهرا فى يده سيف الارهاب الذى سلحه به (مجلس الامة) ، وهو يتمثل فى هذه الكلمات الرهيبة : « يعاقب بالاعدام كل من يفرج عن اسير من زعمـــاء الثائرين او يمهد له سبيل الفرار » .

واما صاحب المذهب المتسامح فهو جوفان القائد الشاب .. وكان سلاحه الوحيد ضرب العـــدو بلا رحمة فى الميـــدان . والعفو عنه بعد المعركة .

ومن هنا نشأ بين هذين الرجلين صراع رهيب صامت ، ونضال خفى عنيف ، كانا مدار الحديث على كل لسان .

واعجب ما فى الأمر ان هذين الخصمين المتناضلين كانا صديقين حميمين . بل كانا قلبا واحدا فى جسدين . وقد انقذ الصـــديق الصارم صديقه الحميم ، وقام الجرح الذى اصابه فى وجهه دليلا ناطقا على عمق هذه الصداقة وتفانيها .

بل أعجب من هذا ان الصديق الصـــــارم كان من ابر الناس بالانسانية فقد كان يضمد الجروح ، ويعنى بالمرضى ، ويصل الليل بالنهار فى المستشفيات الحربية يواسى ويخفف الآلام . ويجـــود بماله على البائسين والمعوزين .

كان بين الرجلين صداقة وثيقة ، وبين مذهبيهما نضال رهيب وخصومة عنيفة . ولم تلبث المعركة الصامتة ان بدات بينهما . فقد قال سيموردان لجوفان فى احد الأيام :

ــ ماذا أتممنا حتى الآن ؟

فأجاب جوفان : انت تعرف هذا كما اعرفه .. انى فرقت شمل عصابات لانتناك .. ولم يبق له الا شراذم متفرقة .. ثم يطرد بعد ذلك الى غابة (فوجير) ولن تمضى الا ثمانية ايام حتى نحاصره .

ــ وبعد خمسة عشر يوما ؟

ــ سيؤخذ أسيرا .

— وبعد ذلك ؟
— هل قرات الاعلان الذى اذعته ؟
— نعم .
— سيعدم بالرصاص .
— هذا تسامح ورحمة .. لابد من اعدامه بالمقصلة .
فقال جوفان : اما انا فأفضل ان يعدم وفقا للتقاليد العسكرية .
فقال سيموردان : وانا أوثر أن يموت وفقـــا لتقاليد الثورة الجمهورية .
ثم تفرس فى وجه جوفان وسأله :
— لم اطلقت سرا راهبات دير (القديسة مارى) ؟
فأجاب جوفان : انا لا اشهر الحرب على النساء .
— هؤلاء النساء يمقتن الشعب .. والمرأة الواحدة تفـــوق فى مقتها عشرة رجال .. لم رفضت ان تقدم الى « المحكمة الثورية » أولئك القسس الشيوخ المتعصبين الذين أسرتهم فى « لوفنيه » ؟
— لأنى لا أشهر الحرب على الشيوخ .
— القس الشيخ اشد ضررا من القس الشـــاب .. ان ارباب الشعور البيضاء أقدر على اذكاء روح التمرد والعصيان . وللناس ايمان اعمى بالشيوخ . لا نريد رحمة كاذبة يا جوفان .. ليكن نظرك دائما متجها الى سجن (التامبل) .
— سجن « التامبل » ! .. لو كان الأمر بيدى لأطلقت سراح ولى العهد .. انا لا اشهر الحرب على الأطفال .
فقال سيموردان وقد بدت فى عينيه دلائل الصرامة ؟
— اعلم يا جوفان انه لابد من اشهار الحرب على المراة اذا كان اسمها مارى انطوانيت .. وعلى الشيخ اذا كان اسمه البابا بيوس السادس .. وعلى الطفل اذا كان اسمه لويس كابيه (ولى عهد فرنسا) .
— لست من رجال السياسة يا استاذى .
— هذا اتجـاه خطر . لم أمرت رجالك بفتح الصفوف امام الثائر جان تريتون فى موقعة (كاسيه) حينما استحال عليه التقهقر وهجم عليهم شاهرا سيفه ، وقلت لهم : دعوه يمر ؟
— لأنه لا يليق بالانسان أن يترك الفـا وخمسمائة رجـل يقتلون رجلا واحدا .

— لم لم تأمر باعدام الفـلاحين الأسرى الثلاثمائة الذين أخذتهم بعد انتصارك فى موقعه (لانديان) ؟
— لان القائد الملكى بوشام عفا عن أسرى الجمهوريين . فأردت أن يقال ان الجمهورية تعفو عن أسرى الملكيين .
— وقياسا على هذا ستعفو عن لانتناك اذا أخذته أسيرا !
— لا .
— ولم لا ؟ . ما دمت عفوت عن الأسرى الفلاحين الثلاثمائة !
— ان الفلاحين قوم جهلاء . أما لانتناك فهو يعقل ما يفعل .
— لكن لانتناك قريبك ؟
— فرنسا أقرب الى منه .
— لانتناك كهل .
— لانتناك غريب ! . لانتناك لا عمر له ! . لانتناك يستجدى الانجليز ! . لانتناك يغزو وطنه ! . لانتناك عدو الوطن ! ان الصراع بينى وبينه لا يمكن أن ينتهى الا بالموت لأحدنا .
— تذكر هذا الوعد يا جوفان .
— هذا قسم عظيم .
— ساد الصمت بين الاثنين ، ثم قطعه سيموردان قائلا .
— كن على حذر يا جوفان . ان واجبات خطيرة تنتظرنا . ان عام ٩٣ هو أدق مرحلة فى تاريخ الثورة . وأخطـــر ما يؤذى الجمهورية هو هذه الشفقة التى تحرص عليها .
فقال جوفان : انى أحـــذرك بدورى كى لا توصم الجمهورية بالارهاب والطغيان . الحرية والمساواة والاخاء هى المبادىء الخالدة التى تقوم عليها الطمانينة ويستتب بها السلام . فلم نطبعها بطابع العنف والبطش ؟ لا يحتاج الانسان الى فعل الشر توسلا الى الخير . ولا يفسد مبادىء السلام والتسامح غير القسوة والتنكيل . لن أسفك الدماء الا معرضا صدرى فى الطليعة . وفوق هذا فانا جندى وحسب . لكنى اذا لم أتوسل بالعفو فالنصر عندى لا يساوى ثمنه . لنكن فى القتال أعداء أعدائنا ، أما بعد النصر فلنكن اخوانا .
فقال سيموردان : انى احذرك للمرة الثانية يا جوفان . فان لك فى نفسى أكثر من منزلة الابن .
ثم استطرد وهو يفكر : ان الشفقة فى العهد الحاضر قد تعـد من قبيل الخيانة .

- ٨ -

ام هائمة

فى هذه الاثناء كانت الأم لا تكل فى البحث عن أبنائها . كانت تهيم على وجهها فى كل مكان ، وتواصل الليل بالنهـار فى السعى والبحث ، ذاهلة عن نفسها . تستجدى المارة ، وتقتات بالأعشاب وتفترش الأرض وتنام فى العراء ، فى الغابات وفى الحقول . تحت لفح الرياح ووابل المطر .

كانت تنتقل من قرية الى قرية باحثـة عن اثر يرشدها الى أولادها .

كانت تقف عند أبواب الفلاحين ، فمنهم من يكرمها ، ومنهم من يقصيها ويطردها .

كانت تجهل كل شيء الا أنها من مزرعة (سيسوانيار) فى مقاطعة (بازى) .. ولم يكن يعرفها أحد فى الجهات التى سلكتها .

ثم تمزقت ثيابها حتى أصبحت اسمالا بالية .. وبلى حذاؤها وراحت تمشى حافية ، دامية القدمين . وكانت تحوطها المعـارك المروعة والملاحم الدامية .. غير أنها لم تحفل بهذا ، فقد كان تفكيرها منحصرا فى شيء واحد .. هو أولادها .

كانت تستوقف المارة وتقول لهم : هل رأيتم ثلاثة اطفـال ؟ ـ ولـدان وبنت ؟ . رينيه جان ، وآلين ، وجـورجيت ؟ . الاكبر عمره أربع سنوات ونصف ، والصغرى عشرون شـهرا .. هل تعرفون أين هم ؟ . انهم اخذوا منى بالقوة !

لكن الناس كانوا ينصتون اليها ، ثم يهزون رءوسهم ويسيرون صامتين .. أما هى فتقف جامدة فى مكانها ، وتغرس أظفارها فى صدرها وهى لا تنبس بكلمة .

على أنها فى أحد الأيام صادفت فلاحا طيب القلب اصغى اليها ، ولما سمع قصتها فكر قليلا ثم قال لها :

— انتظرى .. اطفال ؟

— نعم .. ولدان وبنت .

— انى سمعت كلاما يدور عن سيد حمل معه ثلاثة اطفال وابقاهم عنـده .

هتفت الأم : أين هذا الرجل ؟ أين هم ؟

فأجاب الفلاح : ذهب الى « لاتورج » .

— وهل اجد أولادى هناك ؟

— ربما تيسر ذلك .

— وما هو « لاتورج » هذا ؟

— هو مكان .

— هل هو قرية ؟ أو حصن ؟ او مزرعة ؟

— لم أذهب اليه أبدا .

— هل هو بعيد ؟

— أعرف انه غير قريب .

— فى أى اتجاه ؟

— فى اتجاه غابة (فوجير) .

— وكيف أسير اليها ؟

فأشار الفلاح بذراعه الى ناحية الغرب وأجابها :

— سيرى الى الأمام راسا .

وقبل أن يتم الفلاح كلماته أسرعت الأم ركضا ، فهتف الرجل خلفها :

— حاذرى ! . ان القتال دائر هناك .

لكنها لم تجب ، بل واصلت سيرها الى الأمام .

- ٩ -

« حصن لاتورج »

على صخرة ضخمة قرب نهاية غابة (فوجير) شيد حصن (لاتورج) مقر أسرة جوفان التاريخى . وهو بناء شاهق مستدير مكون من ست طبقات ، يبلغ سمك جدرانه اربعـة امتـار ، ويمتد حـول الصخرة القائم فوقها اخدود يجرى فيه ماء احد الأنهار شتاء ، ويجف صيفا .

ويجاور الحصن المذكور من الناحية الغربية هضبة مرتفعة يفصلها الاخدود عنه ، وبين الحصن والهضبة برج مستطيل قائم على اعمدة مرتفعـة ترتكز قواعـدها فى بطن الاخـــدود ، وهـو مكون من ثلاث طبقات : السفلى رواق مستطيل مقفل الجوانب يسمى غرفة الحراسة والوسطى غرفة للمكتبة بها المجلدات التاريخية ومستندات

الأسرة ، والعليا مخزن للحبوب .
ولكى يأمن اصحاب الحصن من فضول المغيرين عليهم عن طريق البرج ، أنشأوا بابا ثقيلا من الحديد فى جدار الحصن يفصله عن البرج ، ولهذا الباب مفتاح كبير محجوب فى مخبأ لا يعرف سره سوى صاحب الحصن .. وبذلك يتعين على من يريد الدخول الى الحصن أن يجتاز البرج أولا لكى يصل الى الباب الحديدى المذكور ، ثم ينفذ من هذا الباب لكى يدخل الى الحصن .. ولم يكن هناك غير هذا المدخل .

كان حصن « لاتورج » بالاجمال بناء شاهقا من ست طبقات ، له مدخل واحد هو الباب الحديدى الموضوع فى وسط الجدار الذى يبلغ سمكه اربعة أمتار ، وهو يؤدى الى برج من ثلاث طبقات تعزله قنطرة متحركة ، ويجاور القصر من الخلف غابة « فوجير » ومن الامام هضبة أعلى من البرج نفسه وأقل ارتفاعا من الحصن ، وأسفل البرج أخدود ضيق عميق يجرى فيه الماء شتاء .

— ١٠ —

الرهائن

جاء شهر اغسطس عام ٩٣ ، واصيبت ثورة « فنديه » بضربات متلاحقة من الجمهوريين ، وصدرت مراسيم من باريس بتكوين فرق من المتطوعين لاحراق الغابات وتدميرها .

فى هذا الشهر وقع حصن « لاتورج » المشار اليه تحت حصار شديد ، وذات ليلة دوى فى السكون السائد صوت نفير صادر من أعلى الحصن ، فجاوبه طبل من الأسفل .

كان فى أعلى الحصن رجل مسلح ، أما حول قاعدته فقد انتشرت فى الظلام قوات كثيرة العدد ملأت الغابة والهضبة واحاطت بالحصن احاطة السوار بالمعصم . كان الحصن محاصرا بجيش الجمهوريين .

ودوى صوت النفير ثانية من أعلى الحصن ، فتلته على الأثر دقات الطبل صادرة من أسفل الحصن .

كان الحصن يستفهم من المعسكر عما اذا كان يمكنه ان يتفاهم معه ، فأجابه المعسكر بالايجاب ، ومعنى هذا انه عقدت بين الطرفين هدنة موقوتة بضع دقائق .

قال الرجل الواقف فى اعلى الحصن فى صوت مرتفع كان يسمع بجلاء :

أيها الرجال ! .. انا ايمانوس الذى اعدمتم أباه وامه واخته بالمقصلة ، وانى أخاطبكم باسم مولاى الماركيز دى لانتناك ، فيكونت دى فونتناى ، أمير الغابات السبع ، قائدى العظيم .

اعلموا اولا ان مولاى الماركيز قبل أن يعتصم بهذا الحصن الذى تحاصرونه ، قد وزع قيادة الجيوش بين ستة من قواده ، فاذا استوليتم على هذا الحصن فلن تنتهى متاعبكم ، واذا مات مولاى الماركيز وجدت ثورة (فنديه) من يذكيها ويحييها .

انى انذركم بهذا الكلام .. ومولاى الماركيز موجود الآن بجوارى .. وأنا لسانه الناطق الذى ينقل اليكم ما يريد .. فاسمعوا الآن ما يريد .

لا تنسوا ان الحرب التى تشهرونها علينا هى حرب ظالمة .. نحن رجال مسالمون مقيمون فى أرضنا .. وقد هاجمتنا الجمهورية فى عقر دارنا .. فأحرقت بيوتنا .. واتلفت زراعاتنا .. وشتت نساءنا وأطفالنا .

أيها الرجال ! .. حصرتمونا فى هذا الحصن .. وقتلتم وفرقتم من كان معنا .. وأنتم الآن أربعة آلاف وخمسمائة .. أما نحن فلا نزيد على تسعة عشر رجلا .

ان معكم الزاد والذخيرة .. وقد نجحتم فى نسف جانب الصخرة وأحدثتم فتحة فى جدار الحصن يمكنكم الدخول منها ، وان كان باقى الحصن مع ذلك منيعا .. وانتم الآن تستعدون لمهاجمتنا .

فاسمعوا الآن ما نريد أن نقوله لكم .

ان بين أيدينا ثلاثة أطفال اسرى . وهؤلاء الأطفال قد تبنتهم احدى فرق جيشكم ، وهم ينتمون اليكم ، ونحن الآن نعرض عليكم تسليم الأطفال الثلاثة ، بشرط واحد ، هو أن تدعونا نرحل من هنا .

فاذا رفضتم ، فافهموا جيدا ما سيجرى .

لن يمكنكم أن تهاجمونا الا من احد طريقين ، الأول من طريق الفتحة الكائنة عند طرف الغابة ، والثانى من طريق البرج المجاور للهضبة .

ان البرج مكون من ثلاث طبقات . وقد وضعت فى الطابق الأول ستة براميل من القطران، وكمية كبيرة من الأعواد الجافة . وفى الطابق الأعلى يوجد قش كثير ، وفى الطابق الأوسط كتب واوراق

متنوعة . والباب الحديدى الموصل بين البرج والحصن مقفل ، ومفتاحه فى جيب مولاى الماركيز . وقد أحدثت بيدى فتحة أسفل الباب المذكور ، يمتد من خلالها شريط كبريتى يصل احد طرفيه الى القطران ، وطرفه الآخر فى متناول يدى فى داخل الحصن . وفى وسعى ان اشعله حينما أشاء .

فان رفضتم أن تفرجوا عنا ، فسنضع الأطفال الثلاثة فى الطابق الثانى من البرج ، بين الطابق الذى يوجد فيه شريط الكبريت المتصل بالقطران والطابق المملوء بالقش ، ثم يغلق الباب الحديدى عليهم .

فاذا هاجمتمونا من ناحية البرج اضرمتم النار بأيديكم فى البناء . واذا هاجمتمونا من ناحية الفتحة أشعلنا نحن النار . واذا هجمتم من الناحيتين ستشعل النار بأيدينا معا . وفى جميع هذه الحالات هلاك الأطفال المحقق .

والآن ، لكم ان تقبلوا او ترفضوا .

فاذا قبلتم خرجنا .

واذا رفضتم هلك الأطفال .

هذا كل ما عندى .

انقطع صوت المتكلم من أعلى الحصن ، فارتفع صوت خشن صارم من الأسفل صائحا :

ــ اننا نرفض !

ثم تلاه صوت آخر قائلا :

ــ اننا نمهلكم اربعا وعشرين ساعة للتسليم ! . فاذا لم تسلموا غدا فى مثل هذه الساعة بدأنا الهجوم !

وعلى اثر ذلك قال صاحب الصوت الصارم :

ــ وعند ذلك لن تروا منا أقل رحمة !

وما كاد المتكلم يسكت حتى أطل من أعلى الحصن وجه عرف الجميع فيه الماركيز دى لانتناك . وصاح قائلا :

ــ عرفتك أيها القسيس !

فأجاب صاحب الصوت الصارم :

ــ نعم . هو أنا ايها الخائن !

كان صاحب الصوت الصارم هو سيموردان حقا . أما الآخر فكان جوفان .

والواقع انه لم تمض سوى بضعة أسابيع على وجود سيموردان

فى هذه المناطق حتى كانت قسوته مضرب الأمثال ، وجرى اسمه مقرونا بالرعب على كل لسان .

عقدت هدنة موقوته بين الفريقين بفضل تدخل جوفان . وكان ايمانوس لم يتنكب الصواب . فبفضل الامدادات التى طلبها سيموردان استطاع جوفان ان يقف على رأس جيش مكون من اربعة آلاف وخمسمائة من الجنود ، وان يحاصر لانتناك فى حصن (لاتورج) . وكانت ترافقه مدفعية نصب جانبا منها عند حافة الغابة فى مواجهة الحصن ، والجانب الآخر فوق الهضبة امام البرج .

كما نجح فى نسف جزء من قاعدة الصخرة واحداث فتحة فى أسفل الحصن .

كان رجل من أسرة جوفان يهاجم رجلا من أسرة جوفان . واذا كان جوفان الشاب قد تباطأ فى الهجوم بسبب تقديره لتاريخ الحصن فان لانتناك لم يهتم بهذه الحقيقة . فقد أقام شطرا كبيرا من حياته فى فرساى وهو لم يلجأ اليه الا اضطرارا . اما جوفان فكان يعرف أن اضعف نقطة فى الحصن هى البرج . لكن فى هذا البرج غرفة المكتبة التى تضم تاريخ الأسرة ومخلفاتها الجيدة . فاذا هاجم الحصن من هذه الناحية عرض هذه المخلفات للحريق والتلف . وهى جريمة كان يستنكرها .. ولذلك انصرف عن مهاجمة الحصن من ناحية البرج ، واكتفى بوضع بطارية من المدافع فوق الهضبة المجاورة له تلافيا لفرار احد من المحصورين . ووجه همه الى مهاجمة الحصن رأسا من ناحية الغابة . ومن هنا أحدث تلك الفتحة المشار اليها فى أسفل الجدار .

اما سيموردان فقد استاء أولا من هذا التسامح الذى ابداه جوفان . وعد ابقاءه على البرج لونا من الضعف الذى كان يستنكره ويحذر جوفان من الاستسلام له .

لكنه لم يلبث أن تذكر انه تربطه كذلك بهذا المكان روابط تاريخية . فقد قضى شطرا من حياته فى تربية جوفان والاشراف على تهذيبه ، وكان قسا فى قرية باريجيه المجاورة . وفى غرفة المكتبة لقن جوفان دروسه الأولى ووالاه بالتثقيف حتى استوى شابا مكتمل العقل ، ناضج الذهن . ولذلك شارك جوفان فى الابقاء على البرج ومهاجمة الحصن من ناحية الفتحة ــ وان شعر مع ذلك بوخز الضمير لاستسلامه لهذا الضعف .

استعداد ايمانوس

بينما كان الماركيز مهتما بالدفاع عن الحصن أخذ ايمانوس يشرفه على البرج .

كان للبرج سلم مدلى فوق الجدار من الطابق الثانى الى قاع الاخدود وهو احتياط راى أصحاب الحصن اتخاذه لامكان الافلات من البرج فى حالة نشوب النار فيه . ولما عرف الماركيز بحصار الحصن أمر برفع هذا السلم ووضعه ايمانوس فى غرفة المكتبة .
وكانت نوافذ الطابق الأول فى البرج ، وهو المعروف بغرفة الحراسة، مشبكة بالقضبان الحديدية الغليظة فى الجدار . أما نوافذ غرفة المكتبة فى الطابق الثانى فلم يكن بها قضبان ، غير انها كانت شديدة الارتفاع .

صحب ايمانوس ثلاثة رجال معه هم (أواسنار) والاخوان (بيكبوا) وهم رجال ذوو جلد وقوة ، وحمل مصباحا وفتح الباب الحديدى الموصل بين الحصن والبرج ، وشرع يتفقد طبقاته الثلاث .
طاف ايمانوس بالطابق العلوى للبرج ، وهو غرفة المخزن المملوءة بالقش ، ثم هبط الى الطابق الأول حيث توجد براميل القطران وأعواد الحطب الجاف . فوضعها متلاصقة ، واطمأن الى حالة الشريط الكبريتى الذى كان أحد طرفيه فى هذه الغرفة وطرفه الآخر فى الحصن . ثم سكب فوق الحطب وأسفل البراميل كمية من القطران وغمس نهاية الشريط فيه .

وحمل اخيرا الى الطابق الأوسط المكون من غرفة المكتبة وهى كائنة بين الطابق الأرضى حيث يوجد القطران والطابق العلوى حيث يوجد القش — حمل الى هذه الغرفة الأسرة الثلاثة الصغيرة وفوقها الأطفال الثلاثة رينيه جان وآلين وجورجيت الذين كانوا مستسلمين للنوم .

وضع الأطفال بهدوء فى غرفة المكتبة أمام السلم المرتكز الى الجدار ، وكان بجوار كل مهد اناء به حساء وملعقة خشبية . وفتح نوافذ الغرفة حتى يتجدد هواؤها ، ثم أمر زملاءه بفتح نوافذ الغرفتين العليا والسفلى كذلك .

ملائكة ...

مضى الليل كله فى استعداد الجانبين لخوض معركة الغد .
وقد استيقظ الأطفال الثلاثة . وفتحت الطفلة الصغيرة عينيها أولا .
ان استيقاظ الأطفال كتفتح الأزهار فى أكمامها . ويكاد يحسب الانسان ان نسيما عطرا يفوح شذاه من هذه الأرواح البريئة الفضة .
كانت جورجيت تناهز عشرين شهرا . وهى صغرى اخويها . وما لبثت أن رفعت رأسها ، وجلست فى مهدها ، ونظرت الى قدميها ، ثم اخذت تلغط فى شدو كتغريد الطيور .
كان اخواها نائمين كل فى مهده . وكان رينيه جان يبدو قوى البنية ، وتمدد على وجهه ووضع يديه تحت عينيه . أما آلين فانه أدلى سافيه من فوق حافة المهد .
كان الأطفال الثلاثة يرتدون ملابس ممزقة بالية خلعها عليهم جنود (الفرقة الحمراء) . لكنها اصبحت بفعل الايام خيوطا لا تكاد تستر أجسامهم . ولم يكن هناك من يعنى بهم ويحنو عليهم . فقد كان الفلاحون القساة يجرونهم معهم من قرية الى قرية ومن غابة الى غابة . وكل ماكانوا يجودون به عليهم هو قليل من الحساء .
على انه برغم هذه الاسمال البالية التى تعلو الأطفال ، كانت تحوطهم هالة من النور ، ومظهرهم يثير الحب والانعطاف .
استيقظ رينيه جان بعد جورجيت . وكان يجاوز الرابعة من عمره . ولما رأى اناء الحساء بجانبه ، جلس فوق الأرض ، واخذ يتناول طعامه .
ثم استيقظ آلين على صوت الملعقة التى كان رينيه جان يدسها فى الاناء .. كان يناهز الثالثة من عمره . ولما رأى الاناء الخاص به بجانبه ، لم يكلف نفسه عناء النزول الى الأرض ، بل مد يده الصغيرة وتناوله ، ووضعه فى حجره ، واخذ يأكل بدوره .
ولما رأت جورجيت شقيقيها يأكلان ، كفت عن تغريدها الملائكى وتناولت الاناء الموضوع قرب مهدها ، واخذت تأكل . وكانت احيانا تدنى الملعقة من اذنها ، لا من فمها . واحيانا تنبذ وسائل المدنية ، وتأكل بأصابعها الصغيرة .

وفجأة ، دوى من ناحية الغابة صوت طبل عال ، فاجابه صوت نفير من اعلى الحصن .
ثم ارتفع من ناحية الغابة صوت بعيد وصاح صاحبه :
ـ يا قطاع الطرق ! . هذا انذار لكم ! . اذا لم تسلموا عند غروب الشمس ، بدانا الهجوم !
فأجابه صوت كزئير أسد ضار صادر من أعلى :
ـ اهجموا !!
فاستأنف صاحب الصوت السفلى كلامه :
ـ سنطلق مدفعا قبل الهجوم بنصف ساعة ، وهو آخر انذار لكم .
فردد صاحب الصوت العلوى كلمته :
ـ اهجموا !
لم تصل أصوات هذا الحديث الى آذان الاطفال . ولكنهم سمعوا صوت النفير والطبل بجلاء . فكفت جورجيت عن الاكل . واخذت تنصت باهتمام . وراحت ترفع وتخفض يدها الصغيرة وفاقا لتموجات صوت النفير . وشاعت فى ملامح وجهها ابتسامة ملائكية .
اما الطفلان الآخران فلم يكترثا بهذا الصوت . بل نهضا وراحا يتنقلان فى ارجاء الفرفة ، باحثين ، مستطلعين فى فضول الاطفال المعروف .
فرغت جورجيت من طعامها . والقت الاناء والملعقة جانبا . ولما رات شقيقيها منهمكين فى اللعب والعبث ، هبطت من فوق المهد الصغير . واخذت تحبو على اربع . وانضمت اليهما .
وفجأة بينما كان رينيه جان يلعب قرب احدى النوافذ رفع راسه ، ثم أسرع الى احد الأركان واختبأ . فقد راى رجلا ينظر اليه .
كان احد جنود الزرق المرابطين فوق الهضبة . وقد انتهز فرصة الهدنة الموقوتة وتسلل الى حافة المنحدر الذى يشرف على داخل غرفة المكتبة التى وضع الأطفال بها . وارسل نظرة .
وما كاد آلين يرى شقيقه يختبىء ، حتى أسرع الى الاختباء بجواره واسرعت جورجيت بدورها الى الاختباء خلف الاثنين . وبقى الثلاثة فى مكانهم صامتين ، ووضعت جورجيت اصبعها على فمها .
تشجع رينيه جان بعد قليل ورفع رأسه ونظر أمامه . فوجد

الجندى باقيا فى مكانه . فتراجع بسرعة . وتلاصق الاخوة الثلاثه وقد حبسوا انفاسهم .
مضت بضع دقائق .. وسئمت جورجيت هذا الموقف .. فاستجمعت شجاعتها واطلت براسها الى ناحية النافذة .. لكن الجندى اختفى .. وسرعان ما خرج الثلاثة من مخبئهم ، وعادوا الى سابق مرحهم واخذوا يعبثون ويلعبون .
ثم جاء المساء ، واشتدت الحرارة ، وتثاقل جفنا جورجيت ... وذهب رينيه جان الى سريره الصغير ، وحمل كيس القش الذى فوقه وجره الى النافذة ، وتمدد فوقه قائلا :
ـ جاء وقت النوم .
اسند آلين راسه الى رينيه جان وتمدد بجواره ، ووضعت جورجيت راسها فوق آلين .. واستسلم الثلاثة للنوم .
انحدرت الشمس فوق الافق ولامست حافته .. وساد سكون عذب يملأ النفوس راحة وطمأنينة .. وتجمع هؤلاء الأطفال الثلاثة كتلة واحدة نصف عارية كأنهم صور من (كيوبيد) .
كانوا صورة مجسمة للنقاء والطهارة .. ولم تتجاوز اعمارهم مجتمعة تسعة اعوام .. وكانت الابتسامات العذبة المنطبعة على شفاههم صدى للأحلام السماوية التى يسبحون فيها .. وربما كانت الملائكة فى هذا الوقت تهمس فى آذانهم .
وفجأة عكر السكون دوى هائل صدر من ناحية الغابة .. هو قصف مدفع .. وتجاوبت اصداؤه فى تموجات جهنمية تبعث الرهبة فى النفوس .
استيقظت جورجيت على هذا الصوت . ورفعت راسها قليلا ، ثم غمغمت : بوم !
تلاشى الصوت . وساد السكون .. ثم توسدت جورجيت صدر آلين ، واستأنفت رقادها الهنىء .

الفصل التاسع

الأم

- ١ -

شبح الموت

فى فجر هذا اليوم كانت الأم التى شاهدناها هائمة على وجهها فى الفصول السابقة سعيا وراء اطفالها ــ كانت تسير الى الامام ، متجهة الى الغرب ، كما أوصاها الفلاح ، تردد بين حين وآخر كلمة واحدة : « لاتورج » وكانت هذه الكلمة هى كل ما تعرفه ، فيما عدا اسماء اولادها ..

كانت تسير ذاهلة حالمة .. لا تحفل بشىء حولها .. ولا تفكر الا فى اطفالها .

وصلت الى قرية فى طريقها .. وكان الفجر قد بزغ . واخـذت خيوطه تبدد غياهب الظلام .. ورأت بعض الحوانيت مفتوحة فى طرقات القرية الرئيسية .. والناس يطلون من نوافذهم مستطلعين .. لقد سمعوا دوى عجلات مركبة . وصليل سلاسل .

وفى ميدان الكنيسة وقف جمع من اهل القرية تعلوهم مظـاهر الخوف ورفعوا رءوسهم وجعلوا يراقبون شيئا ينحدر فوق سفح التل القريب ، ويدنو من القرية .

كانت مركبة ذات اربع عجلات تجرها خمسة جياد تتدلى منها السلاسل وفوقها جسم غير محدد الشكل ، ويعلوه غطاء من القماش السميك كأنه غطاء نعش وكان يتقدم المركبة عشرة فرسان ويسير مثلهم فى أثرها ، تغطى رءوسهم قبعات تعلوها شارات مثلثة الألوان وتبدو من فوق رءوسهم أطراف سيوف مجردة .

كان هذا الموكب يتقدم ببطء ، وهو يبدو للعين مجللا بالسواد فى ضوء الفجر الباهت .

انتشر ضوء الصباح بينما كان الموكب ينحـــــدر فوق التل .. وتميزت العين أطراف الموكب .. فكان الفرســـان فرقة من الجنود شاهرة سيوفها ، وكانت المركبة سوداء اللون .

وصلت الأم البائسة الى القرية من الناحية المقابلة .. وانضمت الى جمع الفلاحين عند مرور المركبة والجنود فى الميدان .. وراح الفلاحون يتبادلون الأسئلة والأجوبة ، فقال أحدهم :

ــ ما هذا ؟

ــ المقصلة .

ــ من أين جاءت .

ــ من فوجير ؟

ــ والى أين تذهب ؟

ــ لا أعرف . يقال انها ذاهبة الى حصن بجوار (باريجية) .

ــ لتذهب الى حيث تشاء بشرط الا تقف هنا .

اخترق هذا الموكب الرهيب ميدان القرية وجاوزها .

كانت القرية كائنة فى سهل منخفض بين تلين . وبعـد ربع ساعة شاهد الفلاحون المروعون ذلك الموكب يظهر ثانية فوق سفح التل المقابل . ثم انعطف الطريق واختفى شبح الموت عن انظارهم .

وفى نفس هذا الوقت كانت جورجيت قد استيقظت مع شقيقها كما مر فى الفصل السابق ، واخذوا يتناولون طعامهم .

- ٢ -

نذير الموت

راقبت الام هذا المشهد دون أن تفقه منه شيئا أو تحاول أن تفهم ، فقد كان تفكيرها منحصرا فى أولادها .

ولم تلبث ان غادرت القرية وسارت فى اثر الموكب المتجه الى الغرب ، مبتعدة عنه بمسافة .

وفجأة عادت الى ذاكرتها كلمة (المقصلة) التى سمعتها . فرددتها على لسانها وهى ترتعد .

كانت هذه الفلاحة البائسة لا تفهم معنى هذه الكلمة . لكن الفريزة أوحت اليهـا انها شىء مخوف مرهوب . فسرت فى كيانها تشعريرة دون أن تفهم السبب . وارتاعت من السير خلفهـــا .

وانحرفت الى اليسار مبتعدة عن طريقها ، ودخلت فى غابة ، هى غابة « فوجير » .

ولما قطعت مرحلة كبيرة لمحت عن بعد سقوفا وقبة عالية بهــا ناقوس ، كانت احدى القرى المتناثرة على حدود الغــابة المترامية الأطراف ، ولما أحست بالجوع اتجهت اليها .

كانت هذه القرية احدى القرى التى استولى عليها الجمهوريون ووضعوا فيها حرسا من رجالهم .

قصدت الام الى ميدان القرية .. وشاهدت امام دار العمدة جمعا من الناس وقفوا أسفل درجات المدخل ، بينما وقف فى أعلى الدرج رجل يحمل بيده اعلانا كبيرا منشورا ، وقد انتصب عن يمينه جندى يحمل طبلا ، وعن يساره رجل بيده دلو وفرشاة .

وفى الشرفة المطلة على الباب وقف العمــدة حاملا وشاحا مثلث الالوان .

كان حامل الاعلان احد المنادين الذين يطوفون بالقرى ، وكان يحمل فوق كتفه حزاما تتدلى منه حقيبة صغيرة .

دنت ميشيل كليشار من هذا الجمع وقت ان بسط المنـــادى الاعلان وراح يتلو مافيه بصوت مرتفع :

« الجمهورية الفرنسية وحدة لا تتجزأ » .

رن الطبل .. فحدث لغط بين الجمهور .. ورفع بعضهم قلانسه .. وارخى آخرون قبعاتهم فوق رءوسهم .. كان هؤلاء من الملكيين .. واولئك من الجمهوريين .. ثم ســكنت الاصوات .. واصغى الجميع وتلا المنادى :

« بناء على ما تلقيناه من الأوامر ، واستنادا الى السلطة المخولة لنا من « لجنة الأمن العام » .

« وتطبيقا لقانون « مجلس الأمة » الذى يعتبر جميــع العصاة الذين يقبض عليهم مسلحين ، خارجين على القانون ، والذى ينص على انزال العقاب الصارم بكل من يؤويهم أو يساعدهم على الفرار .

« واستنادا الى المادة السابعة عشرة من القانون الصادر فى الثلاثين من ابريل الذى يفوض المنـــدوبين ووكلاءهم تفويضا تاما ضــد الثائرين .

« يعد خارجا على القانون كل من الأشخاص الواردة اسماؤهم والقابهم فيما يلى :

« لانتناك ، ماركيز سابقا . قاطع طريق حاليا » .

غمغم احد الفلاحين حينما سمع هذا الاسم : هذا مولاى !

وترددت هذه الكلمات على السنة الفلاحين جميعا .

استأنف المنادى تلاوته لأسماء ثمانية عشر آخرين وصفهم بأنهم قطاع طريق .

ثم استأنف المنادى تلاوته :

« وكل من يقبض عليه من المذكورين اعلاه سيعدم فى الحال » .

حدث لغط بين الجمهور . ثم استطرد المنادى :

« وكل من يؤويهم او يسهل لهم الفرار سيقدم أمام المحكمة العسكرية ويحكم عليه بالاعدام . الامضاء مندوب لجنة الأمن العام . سيموردان » .

قال احد الفلاحين : هو قسيس .

وقال آخر : هو القس السابق فى قرية (باريجيه) .

ورفع العمدة قبعته وهو واقف فى الشرفة ، وهتف :

ــ لتحيا الجمهورية !

أشار المنادى بيده ، ودق الطبل ، وقال :

ــ انتبهوا ! . اسمعوا امر القائد جوفان قائد جيوش السواحل الشمالية :

« ممنوع منعا باتا تطبيقا للأمر الصادر اعلاه تقديم اية مساعدة الى الثائرين المذكورين ، وهم محــاصرون فى الوقت الحالى فى حصن (لاتورج) . وكل من يرتكب هذه المخالفة يعاقب بالاعدام » .

هتف صوت حينما سمع هذا الكلام :

ــ لاتورج ؟

كان المتكلم ميشيل فليشار . الأم .

ــ ٣ ــ

حديث الفــلاحين

اختلطت ميشيل فليشار بالجمهور . ولم تــكن تصغى الى شىء معين . غير انها ما كادت تسمع اسم (لاتورج) حتى رفعت رأسها ورددت كلمتها :

ــ لاتورج .. ؟

تطلعت الأنظار اليها .. كانت تبدو فى أسمال بالية وكأنها مجنونة .
غمغم بعضهم :

ـ هى تبدو كأنها من قطاع الطرق !

دنت منها فلاحة حاملة سلة بها بعض الخبز الأسمر ، وقالت لهـــا :

ـ امسكى لسانك !

حدقت اليهـــا ميشيل فليشار ببلادة .. كان من حقهـــا ان تسأل . ولم تفهم موجبا لهذه النظرات التى صوبت اليها .

رن الطبل للمرة الأخيرة . والصق حامل الدلو الاعلان . وانسحب العمدة الى داخل بيته . وانصرف المنادى الى قرية أخرى . وتفرق الجمهور .

تلكأ بعض الأفراد قرب الاعلان .. وراحوا يعـــلقون بمختلف الاحاديث على الأســـماء الواردة فى الاعلان . وكان منهم البيض والزرق .

قال فلاح : مهما يكن فهم لم يقبضوا على الجميع . وهناك زعماء آخرون يقودون الجيوش .

فاعترضه كهل أبيض الشعر صارم النظرات قائلا :

ـ يا لك من أبله ! . اذا أخذوا لانتناك اخذوا الكل .

فغمغم أحد الشبان :

ـ لكنهم لم يأخذوه بعد .

واستطرد الكهل :

ـ اذا اخـــذ لانتناك نزعت الروح . اذا مات لانتناك ذبحت (فنديه) .

وقال أحد الزرق :

ـ من هو لانتناك هذا ؟

فأجابته امرأة من عقيدته :

ـ هو نبيل سابق .

وقال آخر : هو احد الذين يعدمون النساء .

سمعت ميشيل فليشار هذه الكلمات ، فقالت : هذا صحيح .

التفتوا اليها ، فاستطردت : لأنه اطلق الرصاص على ، وكاد يعدمنى .

نظر اليها المتكلمون بارتياب . وقال أحد الفلاحين :

ـ قد تكون جاسوسة .

همست الفلاحة التى خاطبتها من قبل :

ـ امسكى لسانك وابتعدى من هنا .

فأجابت فليشار : لا أفعل شرا .. انى ابحث عن اطفالى .

نظرت الفلاحة الطيبة القلب الى الوجوه التى كانت تحدق فى الام البائسة ، ومست جبينها باصبعها ، وقالت وهى تغمز باحدى عينيها :

ـ هى بلهاء .

ثم انتحت بها جانبا وقدمت لها لقمة .. فراحت ميشيل فليشار تلتهمها بشراهة دون أن تشكر الفلاحة . بينا قال احدهم :

ـ نعم .. ! هى تأكل كالحيوان .. ! هى بلهاء .. !

ثم تفرق الباقون وانصرفوا واحدا فى اثر الآخر .

ما كادت ميشيل فليشار تلتهم لقمتها حتى التفتت الى الفلاحة وقالت لها : أين حصن لاتورج . ارجو أن تساعدينى فى ايجاد اطفالى .
انى لا انتمى الى هذه الجهات . انى اعدمت . لكن لا أعرف أين ...

هزت الفلاحة راسها وقالت : اسمعى . فى أوقات الثورة يجب الا تتكلمى كلاما غير مفهوم . قد يقبض عليك لهذا السبب .

فهتفت الام : لكن (لاتورج) ! أتوسل اليك يا سيدتى أن ترشدينى الى الطريق الموصل الى (لاتورج) .

قالت الفلاحة منفعلة : لا أعرف . ولو عرفت لما قلت . هو مكان شرير . والناس يتحاشونه .

ـ لابد من ذهابى الى لاتورج .. ! ارينى الطريق الى (لاتورج) .

فقالت الفلاحة ابدا .. ! هل تريدين أن تقتلى ؟ على انى لا أعرف المكان ! .. والآن .. انظرى الى .. انت مختلة الشعور . ! اصغى الى يا مسكينة .. ! انت منهوكة القوى .. هل تأتين الى بيتى وتستريحى قليلا .. ؟

فقالت الأم : انا لا اذوق طعم الراحة .

غمغمت الفلاحة : ان قدميك تشققتا !

استطردت ميشيل فليشار : الم اقل لك انهم سرقوا اطفالى ؟ هم طفلة صـــغيرة وولدان .. انى جئت من تجويف الشجرة فى الغابة .. سلى تلمارش المتسول عن ذلك .. ان تلمارش شفانى .. كان بجسمى كسر . هذا كل ما حدث لى .. وهناك الجاويش رادوب .. يمكنك سؤاله . ثلاثة ! نعم ثلاثة اطفال ! . ان زوجى توفى . قتلوه ! كان مزارعا فى (سيسوانيار) يظهر انك امرأة طيبة .

اريني الطريق . لست مجنونة . انا ام ! . فقدت اطفالي . وانا ابحث عنهم . اريد أن أذهب الى (لاتورج) .
هزت الفلاحة راسها وقررت انها لا تعرف المكان وقدمت اليهـا رغيفا قائلة :
ــ هذا لعشائك .

تناولت ميشيل فليشار الرغيف الاســـمر دون ان تجيب او تلتفت . بل استمرت فى سيرها الى الامام .
خرجت من القرية . وفيما هى تمر بالبيوت القائمة فى اطرافها صادفت ثلاثة اطفال حفاة الاقدام ممزقى الثياب .
فدنت منهم ولما تبينتهم قالت : هم بنتان وولد .
ولما راتهم ينظرون الى الرغيف اعطته لهم .
تناول الأطفـــال الرغيف . ثم فزعوا منها . اما هى فاندست فى الغابة .

ــ ٤ ــ

صـــوت

حينما تخلت ميشيل فليشار لأطفال القرية عن رغيفها . راحت تهيم على وجهها فى الغابة فى غير وجهة معينة .
سارت طوال النهار دون أن تصادف فى طريقها قرية اخرى أو بيتا واحدا . فاستولى عليها تعب قاتل واعياء مضن . واحست بانها لا تكاد تقوى على رفع قدميها والتقدم خطوة اخرى . وخيل اليها انها توشك ان تسقط صريعة .
كانت الشمس تنحدر الى المغيب . وخيم الظلام على الغابة . ولم تعد تهتدى الى طريق تسلكه .
تطلعت حولها يائسة .. فرات فرجة بين الاغصــان ... ولمـا تحاملت على نفسها واتجهت الى ناحية الفتحة الفت نفسها عنـد نهاية الغابة .
رات امامها واديا ضيقا يجرى فيه جدول صغير .. ولما احست بالظمأ يلهب حلقها هبطت الى الجدول وركعت بقربه وشربت منه ، حتى اذا ارتوت رفعت راسها الى السماء واخذت تصلى .

نهضت من مكانها واجتازت الجدول .
كانت تمتد من هذا الوادى هضبة تتصل بالافق ، تنبت الاشجار القصيرة فوق سفحها المنحدر .
كانت الغابة منعزلة .. اما الهضبة فهى صحراء مقفرة لا اثر بها لمخلوق .
وقفت الأم المنكودة فى مكانها وهى تحس بأن ساقيها تتخاذلان تحتها .. وما لبثت ان صاحت فجأة كأنمـا استولت عليها نوبة جنون .
ــ الا يوجد احد هنا ؟
ترقبت الجواب .. وفعلا جاء الجواب المنتظر .. فقد صدر من ناحية الأفق صوت عميق خافت متموج حملت الريح صداه من مكان الى مكان ، وكأنه هزيم الرعد او قصف المدفع .. وكأنه يجيب على سؤال الام بهذه الكلمة : نعم ..
ثم ساد السكون المطبق .
شربت الأم ورددت صلاتها ، فأحست بقواها تتجدد .. وخيل اليها انها واجدة فى هذا الصوت من تكلمة .. فاستجمعت قواها المكدودة ، واخذت ترتقى الهضبة متجهة الى ناحية الصوت .
وفجأة لمحت حصنا شاهقا يبرز عند نهاية الافق ، وقد ضرجته اشعة الشمس الغاربة بلون أرجوانى .. اما خلف الحصن فقد امتدت ارض تتناثر فيها الخضرة .. هى غابة فوجير .
ولم تملك ميشيل فليشار الا ان تسير الى ناحية الحصن الذى خيل اليها أن الصـــــوت الذى سمعته وانست فيه الجواب على سؤالها قد صدر منه .

ــ ٥ ــ

موقف المتحاربين

تحقق امل سيموردان .. ووقع لانتناك فى قبضة يده .
اخذ الأسد فى عرينه .. ومن الجلى انه لن يتمكن من الافلات ..
واعتزم سيموردان أن يطيح برأس الماركيز ويفصله عن جسده فى نفس المكان الذى نشأ فيه وشهد مجده وسطوته ، حتى يكون عبرة خالدة ومثلا على الدهر باقيا .

ولهـــذا السبب أرسل الى (فوجير) فى طلب المقصلة التى شاهدناها فى طريقها الى الحصن .

ان القضاء على لانتناك هو القضاء على ثورة (فنديه) .. وفى اخماد هذه الثورة انقاذ فرنسا .. ولذلك لم يتردد سيموردان ، واحس براحة فى ضميره .. كان يفريه بالقسوة والصرامة احساسه بالواجب .

على ان هناك شيئا واحدا كان يكدر سيموردان ويقلقه .. فقد توقع أن يكون الصراع رهيبا ، سوف يساهم فيه جوفان الباسل بأوفى نصيب ، وقد يلقى فى هذا السبيل حتفه ، وهو المخلوق الوحيد الذى يحبه سيموردان فى هذه الدنيا وينزله من قلبه منزلة الابن .

ارتعد سيموردان ازاء هذا الخاطر .. كانت الأقدار قد وضعته فى موقف غريب بين سليلى أسرة جوفان .. فهو يتمنى لأحدهما الموت .. ويريد للثانى الحياة !

كان المدفع الذى ايقظ جورجيت فى مهدها ، واستدرج الأم الى ناحية الحصن ، قد أريد به انذار المحصورين باقتراب الهجوم . على انه تجاوز هذه الفابة ، سواء عفوا او عمدا ، وأصاب الحاجز الحديدى الذى يحمى نافذة الحصن فى الطابق الأول ، وحطمه ، وبقيت أجزاؤه مدلاة ، لكن المحصورين لم يجدوا وقتا لاصلاحه .

كان المحصورون معتزين بموقفهم ، لكنه كان موقفا عصيبا ، فقد كانت ذخيرتهم محدودة . ولم يتوافر لهم من الرصاص ما يستطيعون به أن يديروا دفة المعركة زمنا طويلا وأن يصمدوا لمهاجميهم .

واقتصر املهم الوحيد فى الاشتباك مع اعدائهم بالسيوف والخناجر .

وما كاد المدفع يطلق حتى وقفوا على قدم الاستعداد . ولم يبق امامهم سوى نصف ساعة يدور القتال بعده .

ووقف ايمانوس فوق قمة الحصن يرقب زحف المحاصرين . وامر لانتناك رجاله الا يطلقوا النار عليهم حالما يهجمون ، وقال لهم فى هذا الصدد :

ـ هم اربعة آلاف وخمسمائة . ومن العبث أن نحاول قتلهم فى الخارج . أما اذا شرعوا فى الدخول ، فنحن واياهم متساوون فى القـوة .

ثم ضحك واردف : مساواة ! . وآخاء !

واتفقوا أن ينذرهم ايمانوس من فوق قمـــة الحصن عند زحف المحاصرين بالنفخ فى بوقه .

ووقف المدافعــون خلف الاستحكامات وفـوق درجات السلم ، حاملين بنادقهم فى يد ومسابحهم فى اليد الاخرى .

كان الموقف يلخص فى هذه الكلمات :

أمام المهاجمين فتحة يرتقونها ، واستحكامات يجتازونها . وثلاث قاعات قائمة بعضها فوق بعض يقتحمونها . وسلم لولبى يرتقون درجاته واحدة واحدة تحت وابل من الرصاص .

أما المحصورون فلم يكن امامهم غير الموت .

ـ ٦ ـ

تمهيدات

نظم جوفان من ناحيته وسائل الهجوم . فأعطى تعليماته الاخيرة الى سيموردان الذى قـــرر أن يتـــولى حراسة الهضـــبة . والى جيشام الذى يبقى مع اغلب الجيش فى معسكر الغابة . كمـا تقرر الا تطلق المدافع من ناحية الغابة أو من ناحية الهضبة الا اذا بدأ المحصورون بالهجوم أو حاولوا الافلات . واستبقى جوفان لنفسه فرقة الهجوم التى اعتزم أن يقتحم الحصن على راسها . وهـذا ما كان يزعج سيموردان ويثير قلقه .

ادرك جوفان ان من العبث محاولة اقتحام الحصن بالمدافع وهو ذلك البناء المنيع الذى يبلغ سمك جدرانه أربعة أمتار . ولم يكن أمامه الا أن يزحف عليه برجاله ويلتحموا مع المحصورين وجهـا لوجه بالسيوف والخناجر والأيدى والأسنان ، ويزحزحهم خطوة خطوة . وشبرا شبرا . صحيح ان هـذا قتال مروع . واشتباك مخيف . لكنه الطريق الوحيد .

وبينما كان جوفان يفكر رأى الجاويش رادوب واقفا خلفه خافض البصر ، فقال جوفان : ماذا تريد يا رادوب ؟

ـ أيها المواطن القائد .. ان للفرقه الحمراء التماسا تريد ان تتقدم به .

ـ ما هو ؟

ـ نريد ان نموت .

ـ آه !
ـ هل يتحقق هذا الرجاء ؟
فقال جوفان : سيكون هذا مرهونا بالظروف .
ـ اصغ الى يا سيدى القائد .. أنت تحافظ علينا منذ موقعة (دول) ولا يزال عددنا اثنى عشر كما كان .
ـ طيب ؟
ـ فى هذا مذلة لنا .
ـ انى ابقيكم فى صفوف الاحتياطى .
ـ بل نفضل أن نكون فى الطليعة .
ـ لكننى ابقيكم للاستعانة بكم عند توجيه الضربة القاضية فى ختام المعركة .
ـ هذا كثير .
ـ لا .. انتم فى الصفوف .. وستسيرون مع الآخرين .
ـ سنسير فى المؤخرة .. ان لباريس الحق فى أن تسير فى الطليعة .
ـ سأفكر فى هذا يا رادوب .
ـ فكر اليوم ايها القائد .. هذه فرصة سانحة .. سيدور القتال مروعا عنيفا .. ان (لاتورج) ستكوى بنارها من يدنون منها .. نريد أن يكون لنا فى هذا الشأن سهم وافر .
توقف الجاويش عن الكلام ، وراح يفتل شاربه ، ثم استطرد فى صوت مختلف : ثم هناك مسألة اخرى يا سيدى القائد .. فان اطفالنا موجودون فى الحصن .. اى ابناء الفرقة الحمراء الثلاثة .. وقد توعدنا ايمانوس المتوحش بايذائهم .. هؤلاء الأطفال أعزاء علينا يا سيدى القائد .. ولا يمكن أن نصبر على اى مكروه يحل بهم حتى لو زلزلت الدنيا وخرب العالم .. ومنذ قليل انتهزت فرصة الهدنة وارتقيت الهضبة والقيت نظرة عليهم من النافذة .. نعم .. هم هناك فى الواقع .. ويمكنك رؤيتهم من فوق سفح الاخدود .. وقد رأيتهم بعينى راسى وخافوا منى .
اقسم لك يا سيدى القائد انه اذا سقطت شعرة واحدة من رءوسهم فسيكون ثأرنا هائلا مخيفا .. وجميع افراد الفرقة يرددون هذا القول معى .. اما ان ينقذ الأطفال او نموت .. هذا من حقنا يا سيدى القائد .. نريد ان نموت ..
ثم حيا رادوب تحية عسكرية ، فمد جوفان يد وقال له :

ـ انت رجل باسل .. سيكون لكم نصيب فى فريق الهجوم .. سأجعلكم قسمين .. ستة رجال فى الطليعة للتأكد من التقدم ، وستة فى المؤخرة لضمان عدم التقهقر .
ـ هل أقود زملائى الاثنى عشر كالمعتاد ؟
ـ بلا ريب .
ـ شكرا لك يا سيدى القائد ، لأنى سأكون من جنود المقدمة .
حيا رادوب قائده مرة ثانية تحية عسكرية ، وذهب الى رجال فرقته .
اما جوفان فقد نظر الى ساعته وهمس بضع كلمات فى اذن جيشام ، وعلى اثر ذلك اخذت فرقة الهجوم فى الانتظام .

ـ ٧ ـ

العرض الأخير

لم يكن سيموردان قد ذهب بعد الى مقره فوق الهضبة فقصد الى أحد جنود الطبول وقال له : اتصل بالحصن .
رن الطبل .. فأجابه البوق من اعلى .
ولما سمع جوفان ذلك قال لجيشام :
ـ ما معنى هذا ؟ وماذا يريد سيموردان ؟
تقدم سيموردان الى ناحية الحصن حاملا بيده منديلا أبيض .. وصاح فى صوت مرتفع : يا من فى الحصن ! هل تعرفوننى ؟
فأجاب ايمانوس من أعلى : نعم !
ـ أنا رسول الجمهورية !
ـ انت الواعظ السابق فى قرية (باريجيه) .
ـ انا مندوب لجنة الامن العام .
ـ انت قس .
ـ انا ممثل القانون .
ـ انت مارق خائن .
ـ انا مبعوث الثورة .
ـ انت جاحد ملعون .
ـ انا سيموردان .
ـ انت الشيطان .

— هل تعرفوننى ؟
— نحن نمقتك .
— هل يرضيكم ان أقع فى ايديكم ؟
— نحن هنا ثمانية عشر رجلا .. ونحن ننزل عن رؤوسنا مختارين لاخذ راسك .
— بديع .. انى جئت لتسليم نفسى اليكم .
دوت ضحكة وحشية من أعلى الحصن ، وتلتها صرخة تمثلت فى هذه الكلمة : تعال !
كتم المعسكر انفاسه ، واستطرد سيموردان : بشرط واحد .
— ما هو ؟
— اسمعوا .
— تكلم .
— انتم تمقتوننى ؟
— نعم .
— وانا أحبكم .. انا اخوكم .
— نعم .. كما أحب قابيل اخاه .
فاستطرد سيموردان فى صوت غريب .. اشتمونى . لــكن اصغوا الى . انى جئتكم حاملا راية السلام .. نعم .. انتم اخوانى .. انتم مساكين مخطئون . انى لــكم صديق أمين . انا النور . اخاطب الجهل والظلام . والنور ابدا هو الاخاء والولاء . أليس لنا جميعا ام واحدة ؟ . هى فرنسا وطننا ؟ اصغوا الى . ستعلمون فيما بعد ، او سيعلم ابناؤكم او احفادكم من بعدكم ، ان ما يحدث الآن انما يجرى بارادة الله ، وان الثورة كانت امرا مقدورا . وحتى يتلاشى التعصب وفساد الرأى من رءوسكم ورءوس غيركم ، وحتى يعم النور ويغمر كافة النفوس ، حتى يحين هذا كله ويتحقق ، أليس فيكم من يرثى لما تتخبطون فيه من الجهل والظلام ؟ انى جئتكم اقدم اليكم رأسى . بل انى افعل اكثر من هذا . انى اتوسل اليكم ان تمحقونى لانقاذ انفسكم . انى أملك سلطة مطلقة . وما أقوله اقوى على تنفيذه . هذه لحظة رهيبة . انى اعرض عليكم عرضا أخيرا .. نعم . . ان المواطن يتحداكم .. لكن القس يبتهل اليكم ان اصغوا الى . ان بينكم كثيرين لهم زوجات وابناء . انى ادافع عن زوجاتكم وابنائكم . أدافع عنهم ضدكم . يا اخوانى .
فقال ايمانوس ساخرا : استمر . اخطب !

— يا اخوانى .. لا تدعوا بوق الحـــرب يدوى دويه المروع . ستذبح رقاب وتراق دماء . ان كثيرين ممن ترونهم حولى لن يروا شمس الغد . نعم . ان كثيرين منا سيلقون حتفهم .. وانتم .. انتم هالــكون .. ارحموا انفسكم . لم تريقون كل هذه الدماء فى غير نفع ولا طائل ؟ . لم تقضون على كل هذا العدد الكبير ما دام يكفى أن تقضوا فقط على اثنين .
— من هما ؟
— لانتناك وأنا .
ثم استطرد سيموردان بصوت أكثر ارتفاعا :
— ان اثنين بآلاف . لانتناك لنا . وانا لــكم . هذا هو اقتراحى الذى أعرضه عليكم . وبه تنقذون حياتــكم جميعا . اعطونا لانتناك وخذونى . وسيعدم لانتناك بالمقصلة . وتفعلون بى ما تشاءون .
فصرخ ايمانوس : ايها القسيس .. لو وضـــعنا أيدينا عليك لشويناك على نار بطيئة .
فقال سيموردان : موافق .
ثم استطرد : أيها المحكوم عليكم بالفناء ! .. يمكنكم جميعا فى ظرف ساعة ان تعيشوا وان تتحـــــرروا .. انى أهبكم الحرية والسلامة . فهل تقبلون ؟
انفجر ايمانوس صائحا : انت شقى ! . انت مجنون ! . لم جئت الآن لازعاجنا ؟ . من سألك ان تأتى وتكلمنا ؟ هل تريد أن نعطيك سيدنا ومولانا ؟ . ماذا تريد منه ؟
— انى اريد راسه . واقدم اليكم ...
— جلدك ! كم نود أن نسلخك كالكلب أيها القس سيموردان ! لا . ان جلدك لا يساوى راسه . اذهب عنا .
— ستكون مجزرة بشعة رهيبة . فكروا فى الامر لآخر مرة .
كان الليل قــد أرخى سدوله أثناء هذا الحــوار الغريب الذى كان يسمع فى خارج الحصن وفى داخله . ولم يخاطب أيمــانوس سيموردان بعد ذلك . بل صاح بأعلى صوته :
— أيها المهاجمون ! . اننا عرضنا عليكم شروطنا . فاقبلوها . والا فالويل لنا جميعا . هل تقبلون ؟ سنسلمكم الأطفال الثلاثة . وتمنحوننا جميعا الحرية والحياة .
فأجاب سيموردان : لكم جميعا . ما عدا لانتناك .
— ابدا !

ـ لا نفاوضكم الا تحت هذا الشرط .

ـ اذن ابدأوا هجومكم .

ساد السكون . ونفخ ايمانوس فى البوق . ثم هبط الى أسفل الحصن . أشهر الماركيز لانتناك سيفه . وركع المحصورون التسعة عشر فوق ارض الطابق السفلى خلف الاستحكامات . ووصل الى سمعهم صوت المهاجمين وهم يتقدمون الى الحصن فى سكون رهيب .

زاد الصوت وضوحا . ثم سمعوه عن كثب منهم ، عند فوهة الفتحة . وفى اللحظةالتالية سدد الجميع بنادقهم خلال الاستحكامات .

ثم أطلق الجميع بنادقهم مرة واحدة . وبدات المعركة .

ـ ٨ ـ

جهنم

دار القتال مروعا رهيبا . ولم يكن يشبه فى عنفه ووحشيته سوى معارك القرون الوسطى ، حينما كان المتقاتلون يلتحمون وجها لوجه ، فتتمزق أجسامهم وتجرى دماؤهم انهارا .

كان سمك الجدار أربعة امتار كما تقدم . وكان على المهاجمين لكى يصلوا الى داخل القاعة الأرضية حيث نصبت الاستحكامات أن يشقوا طريقهم فى فتحة مظلمة طولها أربعة أمتار ، ذات التواءات وتعاريج ، تبرز صخورها كأنياب الحيتان ، وتتكدس فوق أرضها بقايا الاتربة والأحجار .

كان القتال فى هذا المحيط كالقتال فى داخل القبر .

وما كادت طلائع المهاجمين تصل الى نهاية الفتحة حتى دوى صوت يصم الآذان كأنه قصف المدافع . فقد أطلقت النار من الجانبين فى وقت واحد . وصرخ جوفان فى رجاله : اهجموا عليهم !

فأجابه لانتناك صائحا : اصمدوا أمام العدو !

ثم تقارعت السيوف وتطاير الرصاص . وسقط الرجال صرعى يمينا ويسارا . وانعقد الدخان فى جو القاعة ، فكساها حجابا مظلما تعمى فيه العيون ، وتختنق الانفاس . ووطىء المتقاتلون باقدامهم جثث الجرحى ومن يلفظون النفس الأخير . فانبعثت آنات الألم من الصدور ، واشتد الكرب والعذاب .

اما فى الخارج فكان السكون سائدا . ولم تتجاوز اصوات هذه الملحمة المروعة جدران الحصن السميكة . فكأن جهنم فى الداخل . والقبر فى الخارج . ونام الأطفال الصغار فى مراقدهم هادئين .

اشتدت المعركة . وصمد المدافعون خلف الاستحكامات . وفقد المهاجمون عددا من رجالهم ، اذ كانوا يتقدمون صفا واحدا من الفتحة .

وقف جوفان فى ابان هذه المعركة مستبسلا غير هياب ولا وجل ، وكان الرصاص يتطاير حوله من كل مكان . وفيما هو يدير راسه لاعطاء بعض الأوامر ، لمح وجها بجانبه ، فهتف :

سيموردان ! ماذا تفعل هنا ؟

كان هذا سيموردان حقا . وقد اجاب :

ـ جئت حتى أكون قريبا منك .

ـ لكنك ستقتل !

ـ ليكن . وانت ! ماذا تفعل اذن ؟

ـ ان وجودى هنا ضرورى . أما أنت فلا .

ـ ما دمت أنت هنا . فلابد من وجودى هنا كذلك .

ـ كلا يا أستاذى .

ـ بل نعم يا ولدى .

وبقى سيموردان الى جانب جوفان لا يفارقه .

سقط الرجال جماعات فوق ارض القاعة . ومع أن الاستحكامات لم تقع بعد فى أيد المهاجمين الا أن الغلبة دائما فى جانب الكثرة . وكان يقتل واحد من المحصورين الى جانب عشرة من المحاصرين . لكن الامدادات لم تنقطع عن هؤلاء . بينما كان عدد المدافعين يقل ويتضاءل .

وقف المدافعون التسعة عشر جميعا خلف الاستحكامات . وسقط بينهم قتلى وجرحى ، وبقى منهم خمسة عشر قادرين على القتال والدفاع .

ازدادت المجزرة وحشية وفظاعة . ورفع سيموردان صوته فوق صوت الرصاص وصاح : ايها المحصورون ! لم تتركون دماءكم تجرى انهارا ؟ . انتم مهزومون ! . سلموا أنفسكم ! . فكروا فى الموقف ! . نحن اربعة آلاف وخمسمائة . وانتم تسعة عشر ! . اى اكثر من مائتين فى مقابل واحد ! . سلموا ! .

فرد عليه الماركيز لانتناك قائلا : لنضع حدا لهذا النفاق !

وأطلقت عشرون رصاصة مرة واحدة جوابا على سيموردان .

لم تكن جدران الاستحكامات ترتفع الى السقف . وفى هذا فرصة للتسلق . ولذلك صاح جوفان : اهجموا على الاستحكامات . هل منكم من يتطوع للتسلق فوقها ؟

فأجاب الجاويش رادوب : أنا .

— ٩ —

رادوب

كان رادوب قد دخل من الفتحة فى الطليعة . وسقط اربعة من زملائه الباريسيين الذين كانوا ستة فى المقدمة .

وما كاد يجيب بتلك الكلمة السابقة عن سؤال جوفان ، حتى استولت الدهشة على نفوس زملائه ، فقد شاهدوه ينحنى ويمر من بين اقدامهم حتى وصل الى الفتحة ، ولم يصدقوا ان مثل هذا الرجل يهرب .

كان رادوب قد لاحظ ان نسف الفتحة فى أسفل الحصن قد أحدث صدعا فى الجدار امتد من الأرض الى نافذة الطابق الاول حيث تحطم حاجزها الحديدى البارز بفعل المدفع الذى اطلق انذارا للمحصورين . وبرزت أحجار الجدار كأنها درجات سلم معدة للتسلق .

تخلى رادوب عن بندقيته وخلع سترته . ثم دس طبنجته فى حزامه وامسك سيفه بين أسنانه . وراح يتسلق احجار الجدار البارزة بيديه وقدميه العاريتين كأنه قرد ، بينما كان الجنود الذين ينتظرون دورهم للدخول الى الفتحة ينظرون اليه فى دهشة وذهول .

كان الصعود شاقا . لكن رادوب لم يحفل بشىء وقال لنفسه :

— من حسن الحظ انه لا يوجد احد فى الطابق الاول ، والا لما تركونى اصعد هكذا .

وبذل رادوب جهدا خارقا حتى تعلق بالفتحة وزحف منها الى القاعة .

كان صوت القتال المستعر فى الطابق الأرضى يدوى فى سمعه مروعا هائلا .. ولما ارتطمت قدماه بسيفه فوق الأرض انحنى

وتناوله بيده ثم تقدم فى الغرفة محاولا ان يهتدى الى طريقه فى الظلام .

وفجأة لمح خلف العمود طاولة مستطيلة ورأى اجساما تلمع .. فدنا منها وجعل يتحسسها بيده .. فوجد عليها كمية من البنادق القصيرة والطبنجات مصفوفة بنظام كأنما أعدها المحصورون لاستخدامها عند الطوارىء .

هتف رادوب فرحا .. وادرك أنه بهذا السلاح أصبح قوة هائلة ورأى امامه باب القاعة مفتوحا مطلا على السلم المؤدى الى أعلى والى أسفل .. وسرعان ما تناول بندقية قصيرة متعددة الطلقات وسدد فتحتها الى ناحية السلم ، وأطلق رصاصاتها الخمس عشرة، وهو يصيح بملء فمه : تحيا باريس !

ثم تناول بندقية مماثلة ، وصوبها الى السلم وانتظر .

أذهل هذا الهجوم الخلفى المفاجىء المدافعين ، واحدث الاضطراب الشديد بينهم .. وأصابت رصاصاته اثنين صرعتهما .

وهتف الماركيز : هم فى الطابق الاول !

وما كاد الماركيز يتم جملته حتى ارتد المدافعون الى الخلف وابتعدوا عن الاستحكامات بسرعة واندفعوا بجنون الى السلم .. وصاح الماركيز يستحثهم :

— اسرعوا ! .. الشجاعة الآن فى الهرب .. لنسرع جميعا الى الطابق الثانى .. سنصمد هناك ونبدا القتال من جديد .

وانسحب الماركيز آخرهم .. والواقع ان هذه البسالة انقذت حياته : فان رادوب ما كاد يلمح اول الصاعدين حتى أطلق الرصاص ، فسقطوا صرعى .. ولو كان الماركيز فى الطليعة لهلك معهم .

وقبل أن يجد رادوب وقتا لحمل سلاح ثان كان الباقون قد جاوزوا الطابق الاول وفى آخرهم الماركيز دائما .. ولم يقفوا عند هذا الطابق لاعتقادهم بأنه حافل بالرجال ، وأسرعوا الى الطابق الثانى حيث توجد قاعة المرايا ، والباب الحديدى .

ذهل جوفان بدوره من هذه المفاجأة ، ولم يفهم كيف وصلت هذه النجدة الى الطابق الاول .. على أنه لم يضع وقته .. بل تسلق الاستحكامات على راس رجاله وطاردوا المنسحبين الى الطابق الاول، حيث وجدوا رادوب .

حيا رادوب قائده وقال له :

— لحظة واحدة أيها القائد .. أنا الذى فعلت هذا .. انى

تذكرت ما حدث فى (دول) وحذوت حذوك .. وحصرت العدو بين نارين .

فقال جوفان باسما : انت تلميذ نجيب .

وقف المحاصرون فى الطابق الأول الذى استولى عليه رادوب ببسالة وجيء بمصباح .. وانضم سيموردان الى رادوب وأخذ الاثنان يتشاوران .

لم يكن المهاجمون يعرفون مدى قوة اعدائهم . وخشوا ان يكونوا اعدوا لهم كمينا فى السلم . كما انهم فقدوا عددا كبيرا من رجالهم . وكانوا واثقين من التغلب على من بقى من المحصورين فى النهاية ، ولهذه الاسباب مجتمعة ، فضلوا ان يتشاوروا فى الموقف . والا يعرضوا الرجال للموت الا عند الضرورة القصوى . واخذوا يرسمون خطه الهجوم .

وقف المهاجمون الذين استولوا على الطابقين الارضى والاول ينتظرون نتيجه المشاوره بين جوفان وسيموردان . واخيرا قال رادوب بعد أن حيا تحية عسكرية : سيدى القائد .

— ماذا تريد يا رادوب ؟

— هل لى الحق فى أن التمس مكافاة يسيرة ؟

— نعم سل ما تشاء .

— ان التمس أن اكون اول الصاعدين .

كان من المستحيل ان يرفض جوفان هذا الطلب . ولو فعل لتقدم رادوب بلا استئذان .

— ١٠ —

على حافة القبر

بينما كانت المشاورة تدور فى الطابق الأول ، اخذ المدافعون يحصنون الطابق الثانى .

كان المشعل الذى اوقده ايمانوس يضيء القاعة ... ورأى المدافعون ان من العبث ان يغلقوا الباب . وآثروا ان يقيموا عقبة فى وجه المهاجمين تعوقهم عن الوصول اليهم .

كان بالغرفة صندوق ضخم ثقيل من خشب البلوط يستخدم فى حفظ الملابس .. وسرعان ما عمدوا الى هذا الصندوق ونصبوه على جانبه فى مدخل الباب ، فطابقه ، ولم يترك الا فتحة فى أعلاه

لو حاول احد من المهاجمين أن ينفذ منها كان نصيبه موتا محققا .

وقفوا يحصون خسائرهم .. لم يبق منهم الا تسعة فى جملتهم الماركيز وايمانوس .. على أن خمسه من الباقين كانوا مثخنين بالجراح .. اما الباقون فقد لقوا حتفهم .

ولما احصوا الرصاصات الباقية لديهم كان نصيب كل واحد أربع رصاصات .

لم يبق أمامهم امل .. وقفوا على باب الهاوية .. وكان هلاكهم محققا ..

ثم سمعوا اصوات البنادق وهى ترتطم بدرجات السلم أثناء صعود المهاجمين .. فأيقنوا انهم سينقضون عليهم بعد قليل .

لم يكن أمامهم منفذ للفرار .. فأمام غرفة المكتبة نصبت المدافع فوق الهضبة على استعداد لحصدهم .. وليس لهم اذا صعدوا الى أعلى الحصن الا أن يقذفوا بأنفسهم من حالق ؟

قال الماركيز أخيرا : يا اخوانى .. انتهى كل شيء . فلنستقبل الموت .

واخذت ضربات بنادق المحاصرين ترن فوق الصندوق القائم فى مدخل القاعة .

اطرق الجميع وراحوا يصلون .

وفجاة رن صوت سريع قوى صدر من خلفهم ، قال صاحبه :

— الم اقل لك يامولاى ؟

التفت الجميع مشدوهين . فاذا هم يرون مخرجا يفتح فى الجدار .

شاهدوا حجرا فى الجدار يدور على محور ، وتخلفت عنه فتحة مزدوجة عن جانبيه .

وجدوا أمامهم منفذين ضيقين ، لكنهما كانا يسمحان بمرور الانسان من كل منهما . ورأوا خلف هذا الباب الفريب درجات سلم حلزونى .

كان وجه يطل من هذه الفتحة . عرف فيه الماركيز وجه هالمالو .

— ١١ —

النجاة

قال الماركيز : هذا انت يا هالمالو ؟

— نعم يا مولاى . هاقد تحققت انه توجد احجار تدور حقا .

وهى شىء واقعى . يمكنكم الخروج من هنا . انى جئت فى الوقت المناسب . لكن تعالوا بسرعة . ستكونون فى قلب الغابة فى خلال عشر دقائق .

هتف الرجال معا : انج بنفسك يا مولانا .

فقال الماركيز أنتم أولا . لا نريد خلافا فى الايثار . لا وقت لهذا . أنتم مجروحون . انى آمركم ان تعيشوا وأن تهربوا .. اسرعوا .. انتهزوا وجود هذا المنفذ .. شكرا ياهالالو .

— وهل يجب أن ننفصل يا مولانا ؟

— نعم . ننفصل بلا ريب . لا يمكن أن نفلت الا فرادى .

— هل يحدد مولانا مكانا للقاء .

— نعم . فى المكان المعروف فى الغابة باسم (بيير جوفان) . هل تعرفونه ؟

— نعرفه كلنا .

— سأكون هناك غدا ظهرا . ليقابلنى فى هذا المكان كل من يستطيع السير .

— سنكون جميعا هناك .

فقال الماركيز : وسنبدأ الحرب من جديد .

حاول هالالو أن يزيح الحجر المتحرك قليلا لكنه لم يتحرك ، ولم يعد بالامكان اغلاق المنفذ ثانية . فقال : لابد أن نسرع يا مولاى . لن يتحرك . لقد تيسر لى فتح المنفذ . لكن لا يمكن اقفاله .

كانت مفصلات الحجر قد صدئت لقلة الاستعمال . واستحال ادارة الحجر واعادته الى مكانه .

استطرد هالالو : كنت ارجو يا مولاى ان اقفل المنفذ حتى اذا جاء الزرق ولم يجدوا احدا حسبوكم استحلتم الى دخان . لكن الحجر لا يتحرك . سيرى الأعداء المنفذ مفتوحا ، ويتبعوننا . لا تضيعوا ثانية واحدة . اسرعوا . امامكم السلم .

وضع ايمانوس يده على كتف هالالو وقال له :

— كم يستغرق الوصول من هنا الى الغابة ايها الزميل ؟

فقال هالالو : هل يوجد بينكم احد جراحه خطيرة ؟

فأجابوا : لا احد .

— فى هذه الحالة يكفى ربع ساعة .

فقال ايمانوس . اذهبوا . اذا امكن منع الأعداء من الوصول الى هنا ربع ساعة .

— قد يتبعوننا . لكن لن يدركونا .

فقال الماركيز : لكنهم سيصلون الى هنا فى خلال خمسة دقائق ، من يستطيع ان يؤخرهم ربع ساعة ؟

فأجاب ايمانوس : أنا .

— انت يا ايمانوس ؟

— نعم يا مولاى .. اصغ الى .. ان خمسة منكم مجروحون .. اما أنا فلم يصبنى خدش واحد .

فقال الماركيز : ولا أنا .

— انت القائد يا مولاى .. اما أنا فجندى .. والاثنان يختلفان .

— أعرف أن لكلينا واجبا مختلفا .

— لا يامولاى .. ان لكلينا واجبا واحدا .. هو انقاذك .

ثم التفت ايمانوس الى زملائه قائلا :

— ايها الاخوان .. لابد من احتجاز العدو ومنع تقدمه بقدر الامكان . اصغوا الى .. انا متمالك كل قوتى .. ولم افقد قطرة واحدة من دمى .. وما دمت غير مجروح فبوسعى ان اصمد أكثر من غيرى . انجوا بأنفسكم جميعا .. اتركوا لى اسلحتكم .. سأستخدمها على خير وجه .. ما عدد الطبنجات المحشوة هنا ؟

— اربعة .

— ضعوها على الأرض .

اطاع الجميع أمره ، فاستطرد :

— حسنا .. سابقى هنا . سيجدون من يؤنسهم .. والآن .. اسرعوا .. اخرجوا .

كان الموت معلقا فوق الرقاب .. ولم يبق وقت لتبادل عبارات الشكر .. وقال له الماركيز : سنلتقى قريبا .

— لا يا مولاى .. أرجو الا نلتقى قريبا . فانى أوشك أن أموت .

خرج الجميع من المنفذ واحدا بعد الآخر ، يتقدمهم الجرحى ، وراحوا يهبطون السلم .. وبينما كانوا ينجون بأنفسهم اخرج الماركيز من جيبه قلما وخط به بضع كلمات فوق الحجر الذى بقى جامدا فى مكانه .

قال هالالو : هيا يا مولاى . ذهب الجميع الا انت .

وراح البحار يهبط السلم ، فتبعه الماركيز .. وبقى ايمانوس وحده .

- ١٢ -

الجـــــلاد

كانت الطبنجات الأربع موضوعة فوق الأرض .. فانحنى ايمانوس وتناول اثنتين بيديه ، ودنا من مدخل القـــاعة الذى كان يحجبه الصندوق الضخم .

تردد المهاجمون ولم يحاولوا ازاحة الصندوق مرة واحدة .. فقد خشوا كمينا .. ولكنهم حطموا قاعه بقـواعد بنادقهم واحدثوا فى اعلاه ثقوبا بحرابهم .. وحاولوا ان ينظروا من خلال هذه الثقوب الى داخل القاعة قبل الدخول .. وكان ضوء المصابيح التى اناروا بها السلم يبدو من خلال الثقوب .

لمح ايمانوس عينا تتطلع اليه من خـــلال احد الثقوب . فسدد الطبنجة بسرعة الى القلب وضغط على الزناد .. وكم كان فرحه حينما سمع صرخة مروعة .. فقد نفذت الرصاصة من عين الجندى واخترقت مخه .. وهوى الى الخلف فوق السلم .

كان المهاجمون قد احدثوا فتحتين كبيرتين فى الصندوق .. فدفع ايمانوس الطبنجة فى احداهما واطلق النار عفوا على المحاصرين .

سمع ايمانوس صرخات متعددة .. فعلم أن الرصاصة اصابت اكثر من واحد .. وتقهقر الرجال فى السلم .

القى ايمانوس الطبنجتين الفارغتين ، وتناول المحشوتين .. ونظر من خلال الثقوب فراى مبلغ ما احدثته طلقاته فى المهاجمين .

كانوا قد هبطوا السلم .. ولم يستطع ان ينظر سوى أربع درجات لتعرج السلم .. وراى الجرحى الذين اصابتهم رصاصاته يتلوون على الارض الما .. فأخذ ينتظر . وناجى نفسه بهذه الكلمات : كسبنا وقتا لا بأس به .

واخيرا راى رجلا يرتقى السلم زحفا على بطنه .. وفى نفس الوقت ظهر له راس رجل آخر من خلف العمود الذى يدور السلم حوله .

صوب ايمانوس الى الراس واطلق النار . فسمع صرخة .. وسقط راس الجندى .. واسرع ايمانوس بالقاء الطبنجة الفارغة وتناول المحشوة بيمناه .

وفيما هو يفعل احس بألم قاتل ، وصرخ بدوره صرخة شديدة ، فقد طعنه سيف فى بطنه طعنة نجلاء .

كان الجندى الزاحف على بطنه قد وصل الى الصندوق ، ومد يده من خلال الفتحة الكبيرة السفلى ، واغمد سيفا فى بطن ايمانوس .. فنفذ الى امعائه .. واحدث بها جرحا مروعا .

لم يسقط ايمانوس .. بل صر على اسنانه وغمغم : لا بأس .

ثم تحامل على نفســـه وانسحب وهو يترنح الى ناحية الباب الحديدى حيث كان المشعل موقدا .

القى ايمانوس الطبنجة على الأرض .. وتناول بيمينه المشـــعل المعلق بينما كان ممسكا بيسراه امعاءه المدلاة ، واضرم النار فى شريط الموت .

اشتعلت النار فى الشريط على الفور .. والقى ايمانوس المشعل من يده على الارض .. وتنـــاول الطبنجة من جـــديد .. وارتمى على الارض .. بينما انتشر اللهب على امتـــداد الشريط ، ومر أسفل الباب الحديدى .. ووصل الى البرج .

ولما اطمأن هذا الرجل الى نجاح مغامرته الجهنمية . هـــذا الرجل الذى ضرب اكثر من مثل فى البسالة والتضحية ثم انحط فى لحظة الى مرتبة القتلة — لما اطمأن هذا الرجل الى عمله ، ابتسم وهو يتمدد على الأرض استعدادا للموت وغمغم :

— سيذكرون ايمانوس .. انى اثأر فى شخص أولئك الأطفـــال الثـــلاثة ، لذلك الطفل الذى ينتمى الينا جميعـــا .. الملك الصغير الأسير فى سجن (التامبل) .

- ١٣ -

وفاة ايمانوس

فى هذه اللحظة حدثت ضجة عالية .. ودفع الصندوق بعنف الى داخل القاعة ، ودخل رجل شاهرا بيده سيفا ، وصاح قائلا :

— هذا انا .. رادوب ! أرونى ما تفعلون .. انى سئمت الانتظار .

انى جازفت بالدخول .. ومهما يكن فانى مزقت امعاء أحدكم .. وأنا الآن أهاجمكم جميعا .. هأنذا جئت اليكم ، سواء تبعنى الباقون أو لم يتبعونى .. كم أنتم هنا ؟ .

كان الداخل هو رادوب حقا .. وقد جاء وحده .

والواقع ان جوفان خاف على رجاله من كمين مجهول بعد المجزرة التى أحدثها ايمانوس من خلف الصندوق .. ولذلك تراجع معهم ، وراح يتشاور فى الموقف مع سيموردان .

وقف رادوب شاهرا سيفه فى مدخل القاعة التى كان يسودها الظلام الا من ضوء يسير منبعث من المشعل الذى كاد ينطفىء . وردد سؤاله الأول :

— انا وحدى . كم أنتم هنا ؟

لم يجبه صوت .. فتقدم الى الأمام .. وفى هذه اللحظة ارتفع من المشعل ضوء أخير كالذى يحدث عادة قبل الانطفاء ، فأضاء القاعة . وشد ما دهش رادوب حينما رأى القاعة خالية ... فهتف : لا يوجد احد !

ثم وقع نظره على الحجر والمنفذ والسلم .. فصاح قائلا :

— آه ! . فهمت .. مفتاح الحقول ! .. تعالوا كلكم ! .. أيها الزملاء ! . اسرعوا ! . انهم هربوا ! . ذابوا ! . تبخروا ! . بهذا الحصن العتيق منفذ سرى! . وهذه هى الفتحة التى أفلتوا منها ! . ان الشيطان انقذهم بنفسه ! . لا يوجد أحد هنا .

لم يتم رادوب جملته .. فقد انطلقت رصاصة مست كتفه واصطدمت بالجدار فقال : آه ! . اذن يوجد احد هنا ! . من هو الذى تفضل وحيانى بهذه التحية ؟ .

فأجاب صوت قائلا : انا .

التفت رادوب حوله .. فرأى ايمانوس فى الظلام ، فهتف :

— آه ! . انى وجدت واحدا على كل حال . ان الجميع افلتوا . لكنى أعدك الا تلحق بهم .

فأجابه ايمانوس : هل هذا رايك ؟

تقدم رادوب خطوة الى الامام ، ثم وقف ، وقال :

— انت راقد على الأرض ! . من أنت ؟

— انا شخص يستهزىء بك .

وما كاد ايمانوس يتم هذه الجملة حتى لفظ انفاسه الاخيرة .

وصل جوفان وسيموردان بعد قليل مع باقى الجنود . فراوا المنفذ . وتبعوا السلم المتفرع عنه . فوجدوه متصلا عند نهايته بسرداب يفضى الى الأخدود . وايقنوا أن المحصورين قد افلتوا من أيديهم .

تناول جوفان مصباحا واخد يفحص الحجر الذى كان يحجب المنفذ . كان قد سمع عن أمثال هذه الاحجار المتحركة ، بيد انه لم يصدق هذه الخرافه .

وفيما هو يفحص الحجر راى هذه العبارة مكتوبة فوقه : « الى اللقاء يافيكونت جوفان » .

كانت متابعة الهاربين عقيمة . فان أمامهم الغابات والاخاديد يختفون فيها . والسكان يقدمون اليهم جميع المساعدات اللازمة . ولا ريب انهم ابتعدوا الآن بعدا كافيا . بل ان غابة (فوجير) بمخابئها التى لا تحصى هى خير ستار يحجبهم عن العيان . فما العمل ؟ . لابد ان يبدا الصراع من جديد .

وقف جيشام بجوار جوفان وتبادلا حديثا يشف عن القنوط والخيبة . واصغى سيموردان اليهما صامتا وقد علت وجهه دلائل الرزانة والهدوء والاستغراق فى التفكير .

— ١٤ —

الساعة والمفتاح

تبع الماركيز لانتناك هالمالو . وافضى بهما السلم الذى هبطا منه فى اثر الهاربين السابقين الى سرداب مجاور للأخدود ولقواعد البرج .

كان هذا السرداب يؤدى الى شق غائر ينتهى عند الاخدود من ناحية وعند الغابة من ناحية أخرى . وكانت الأشجار الكثيفة تحجب نهاية السرداب حتى ليتعذر على أى انسان أن يرتاب فى اختباء احد به . واذا وصل الهارب الى هذه النقطة لم يبق أمامه الا أن ينسل دون أن يشعر به احد .

حينما وصل الماركيز مع هالمالو الى الشق العميق لم يجد اثرا للهاربين الخمسة . فقال هالمالو : انهم أسرعوا بالابتعاد .

فقال الماركيز : اقتد بهم .

— هل يجب ان اترك مولاى ؟

— بلا ريب . انى أخبرتك بذلك من قبل . أسلم للانسان ان يهرب وحده . ولو بقينا معا للفتنا الأنظار الينا .

— هل يعرف مولاى هذه المنطقة ؟

— نعم .

— وهل لا يزال مولاى يحدد مكان الاجتماع عند (بير جوفان) ؟
— غدا عند الظهر . سأكون هناك . بل سنكون جميعا هناك .
ثم قال هالالو بانفعال : آه يا مولاى ! . لا أكاد أملك صوابى كلما فكرت فى اننا كنا معا فى عرض البحر وحدنا وانى حاولت أن اقتلك ، وانك كنت سيدى ، وانه كان يمكنك ان تخبرنى بهذه الحقيقة . ولكنك مع ذلك لم تتكلم !
قال الماركيز : انجلترا .. لم يعد هناك ملجأ غيرها . يجب أن ينزل الانجليز الى فرنسا فى خلال خمسة عشر يوما .
— ان عندى أقوالا كثيرة اريد ان افضى بها الى مولاى . انى قمت بتنفيذ اوامره .
— سنتكلم فى كل هذا غدا .
— الى اللقاء غدا يا مولاى .
— هل أنت جائع ؟
— ربما يا مولاى .. انى أسرعت بالمجىء الى هنا دون أن أدرى اذا كنت أكلت اليوم أو لم آكل .
تناول الماركيز قرصا من (الشيكولاتة) من جيبه وشطره شطرين اعطى احدهما الى هالالو ، واخذ يأكل الشطر الثانى .. وقال هالالو :
— مولاى .. الاخدود على يمينك .. والغابة عن يسارك .
— حسنا .. اتركنى واذهب الآن .
أطاع هالالو .. وابتعد فى الظلام ، وسمع الماركيز حفيف الاغصان بضع لحظات .. ثم ساد السكون .. وكان يتعذر على اى انسان فى هذا الوقت ان يتعقب هالالو أو يعرف الاتجاه الذى سلكه .
وقف الماركيز جامدا فى مكانه .. كان بحكم الحياة التى عاشها والتجارب التى مرت به ، جامد العواطف لا يستجيب لاسباب الانفعال والتأثر .. غير أنه لم يستطع فى هذه اللحظة ان يكتم انفعاله حينما الفى نفسه يستنشق الهواء النقى بعد أن بقى وقتا طويلا مختنق الانفاس بين مشاهد الدم وآثار الهلاك ، وبعد ان استرد حريته وعاد الى الحياة ، وقد ايقن منذ لحظات انه وقف على حافة القبر .
كان هذا الاحساس اقرب الى الفرح والابتهاج منه الى اى شىء آخر .. غير انه تغلب على شعوره واقصى عنه هذا الانفعال بسرعة ، واخرج ساعته من جيبه ونظر فيها .

وشد ما دهش حينما الفاها لم تتجاوز العاشرة .. شأن الانسان دائما حينما يقضى لحظات عصيبة بين اليأس والأمل وبين الموت والحياة ، حتى اذا انجلت عنه غمرتها لم يجدها أطول من المألوف .
كان مدفع الانذار قد أطلق قبيل الغروب .. وهاجم الزرق الحصن بعد ذلك بنصف ساعة ، بين السابعه والثامنه وقت هبوط الظلام . وهكذا بدأ الصراع الهائل فى الساعة الثامنة ، وانتهى فى الساعة العاشرة ، ولم تستغرق تلك الملحمة المروعة سوى ساعتين .
أعاد الماركيز ساعته الى جيبه . لكنه لم يضعها فى نفس الجيب الذى اخرجها منه . فقد وجد فى هذا الجيب مفتاح الباب الحديدى الذى اعطاه ايمانوس اياه . وخشى أن يتحطم زجاج الساعة اذا وضعها بجواره .
ثم اتجه نحو الغابة بدوره . وفيما هو ينعطف الى اليسار خيل اليه انه راى ضوءا ضعيفا يخترق الظلام .
عاد الماركيز أدراجه . وفجأة دنا من بقعة راى عندها ضوءا عظيما فى الاخدود . ولم يكن يفصله عنها سوى بضع خطوات .
أسرع الى هذه البقعة . ولما راى انه سيعرض نفسه للأنظار فى هذا الضوء ، وانه يوشك ان يرتكب حماقة لا مبرر لها ، أمسك عن التقدم .
لم يكن يعنيه ما يحدث . ولم يلبث أن سار فى الاتجاه الذى أرشده اليه هالالو ، واتجه الى الغابة .
وفيما هو محجوب خلف الأغصان . سمع فجأة صرخة مروعة يتردد صداها فوق راسه . وخيل اليه ان هذه الصرخة صدرت من فوق حافة الهضبة المشرفة على الاخدود ، فرفع الماركيز عينيه . ووقف مكانه جامدا .

الفصل العاشر

تحت رحمة النيران

- ١ -

وجدتهم .. وفقدتهم

كانت ميشيل فليشار تبعد عن الحصن بنحو ثلاثة اميال حينما وقع نظرها عليه . على ان تلك المخلوقة التى لم تكن تقوى على رفع قدميها لم تتردد فى اجتياز هذه المسافة .

كانت المرأة ضعيفة منهوكة . اما الأم فقد استمدت من ضعفها قوة . وسارت الى الأمام .

غربت الشمس . وانتشر الشفق . ثم ساد الظلام . وفيما هى تواصل السير سمعت من بعيد ناقوسا محجوبا فى طوايا الظلام يدق مؤذنا بالساعة الثامنة . ثم التاسعة .

وكانت تقف بين حين وآخر وتصغى الى أصوات غريبة كانهـــا صدى ضربات مكتومة . على أنها عزتها الى هبوب الرياح .

استمرت فى السير غير حافلة بالأشواك والنباتات البرية التى كانت تدمى قدميها . وكان يحدوها ضوء يسير ينبعث من الحصن المتباعد ، فيحدد هيكله فى الظلام . وزاد هذا الضوء وضوحا حينما تعالت الأصوات التى سمعتها ، ثم تلاشى كل شىء فجأة .

وكانت الهضبة التى سارت ميشيل فليشار فوقهـــا مغطاة بالحشائش والنباتات البرية . ولم يكن بها منزل واحد ولا شجرة نامية . وكانت تتدرج فى الارتفاع حتى تتصل بالأفق عند نهايتها . على ان الام جعلت الحصن نصب عينيها وغايتهـا المنشودة ، وهو ما كان يدفع عنها الانحلال والتهدم .

كانت الأصوات المكتومة والأضواء اليسيرة المنبعثة من الحصن تصدر متقطعة . كانت تعلو ثم تخفت فجأة فتحير قلب الام المنكودة وتملؤه عذابا وضنى .

وفجأة تلاشت الاصوات والاضواء جميعا مرة واحدة وساد سكون مطبق كسكون القبور . وفى هذه اللحظة وصلت ميشيل فليشار الى نهاية الهضبة .

رأت عند قدميهـا أخدودا يختفى قاعه فى الظلام ، وعلى مسافة قليلة منهـــا قمة الهضبة ، مشهدا غريبا هو خليط من العجلات والهياكل المعدنية ، هو بطارية مدفعية ، وامامها بناء ضخم يشمله الظلام ، مكون من قاعدة تقوم كالقنطرة فوق الاخدود ، ومن مبنى يشبه البرج . وهذا البناء جميعه قائم فى ظل هيكل شاهق مستدير هو الحصن الذى قطعت فى سبيل الوصول اليه كل هذه المسافة .

دنت ميشيل فليشار من حافة الهضبة قريبا من البرج حتى خيل اليها انها تكاد تلمسه ، لولا ان فراغ الاخدود كان يفصله عنها . ورأت طبقات البرج الثلاث أمام عينيها .

وقفت أمام هذا البناء الغريب زمنا لم تدر تحديده . وراحت تسائل نفسها عن كنهه وعما يدور فيه . وعما اذا كان هو (لاتورج) الذى سعت اليه . وأحست بدوار غريب يستولى عليها .

وفجأة انتشرت سحابة من دخان كثيف أمامها ، فحجبت عن نظرها هذا البناء الذى كانت تنظر اليه مشتتة الفكر ، وسمعت صوتا عنيفا جعلها تغمض عينيها ، وما كادت تفعـل حتى احست بضوء باهر يغمر بصرها . ففتحت عينيها .

• تبدد الليل . وساد النهـار . لكنه نهار مروع . نهار نوره نار .

رأت أمامها ألسنة من نار تتلظى، صادرة من نافذة مشبكة بالقضبان الحديدية فى الطابق الاول بالبرج ، وكان فراغ النافذة شعلة مضطرمة كأنها فوهة اتون مستعر .

حدقت ميشيل فليشار أمامها وقد عقد الذهول لسانها . خيل اليها انها تحت تأثير حلم ثقيل وكابوس مروع . ولم تدر اهى فى اليقظة أم فى المنام . ولم تعـــرف ان كان يسوغ لها البقـاء او الابتعاد .

ثم هبت الريح فجأة وبددت الدخان . فرأت ميشيل فليشار فى ضوء اللهب كافة طبقات البرج والحصن معا واضحة المعالم محددة الأجزاء .

كان الطابق الأسفل من البرج يحترق . اما الطابقان الباقيان ، فلم تمسهما النار بعد . لكنهما ارتكزا فوق قاعدة من نار .

وكان الدخان ينقشع بين وقت وآخر . فتسنى لميشيل فليشار

ان ترى نوافذ الطابق الثانى جميعا مفتوحة ، ورات دواليب الكتب مصفوفة بجلاء فوق الجدران ، ولمحت قرب احدى النوافذ جسما غامضا راقدا فى الظلام يشبه مجموعة من الطيور فى عشها . وكان يخيل اليها ان هذا الجسم يتحرك أحيانا . فركزت عينيها فى هذه الناحية .

راحت ميشيل فليشار تسائل نفسها عن كنــه هــذه المجموعة الراقدة فى الظلام . وكان يخيل لها أحيانا انها مكونة من أجسام حية . لكنها كانت فى شبه حمى . فهى لم تذق شيئا منذ الصباح. وسارت سيرا شاقا متواصلا . واضناها الاعياء والاجهاد . واحست بانها تكاد تقع فريسة للهذيان ، لولا أن مسكة من الصواب كانت تقويها على التشدد والجلد .

على أنها مع ذلك لم تستطع أن تحول عينيها عن تلك المجموعة الراقدة قرب نافذة الطابق الثانى فى البرج .

وفجأة امتدت السنة النيران من النافذة واتصلت بعمود النباتات الجافة المتسلقة الممتدة على طول جدار البرج ، وسرعان ما اشتعلت النار فيه كأنما غذته قوة جهنمية ، وامتدت فى طرفة عين الى الطابق الثانى . وسطع وهج النار فكشف عن الأطفال الثلاثة راقدين فوق الأرض . كانوا مجموعة من الايدى والســيقان الفضة متشــابكة متلاصقة ، والوجوه الملائكية الباسمة .

عرفت الأم أطفالها .

صرخت صرخة مخيفة .. صرخة مفعمة بالالم القاتل لا تصدر الا عن الأم وحدها . صرخة وحشية مؤثرة معا .

كانت هذه الصرخة هى التى نفذت الى سمع الماركيز دى لانتناك .. وما كاد يسمعها حتى وقف جامدا . وراى فى مكانه من خلال الأغصان مبنى البرج شعلة من نيران انعكس وهجها الارجوانى فوق طبقات الحصن . ولما رفع راسه الى أعلى من خلال فرجة الاغصان فوق راسه . راى عند حافة الهضبة فوق جانب الاخدود الثانى ، وأمام البرج المشتعل – راى امراة منحنية فوق حافة الهاوية ، وقد انعكس ضوء اللهب على وجهها المتقع المتقلص الما وفزعا .

وادرك ان الصرخة التى سمعها صدرت من تلك المراة .

كانت المسكينة تعوى كالوحش الجريح . وكانت صرخاتها الاليمة تفطر القلوب وتفتت الجماد . وكانت تنبعث من عينيها الباكيتين سهام كأنها ومض البرق .

اصغى الماركيز الى الـكلمات المختلطة المؤثرة التى كانت تصدر منها وتصل الى سمعه جليــة : آه يا ربى ! . اولادى ! . هؤلاء اولادى ! . النجدة ! . النار ! . النار . آلنار ! . أيها اللصوص القتلة ! . لا احد هناك ؟ . أولادى يحترقون ! . جورجيت ! . آلين ! . رينيه جان ! . ما معنى هذا ؟ . من وضع أولادى هناك ؟ . هم نائمون ؟ . آه ! . انى جننت ! . لا يمكن ! . النجدة .. النجدة .. !

فى هذه اللحظة تعالت الحركات وساد الهرج فى الحصن وفوق الهضبة .. وخف جنود المعسكر جميعا الى النار التى امتد لهيبها ، وانهمك جوفان وسيموردان وجيشام فى اصدار الأوامر .

على انهم لم يستطيعوا ان يعملوا شيئا ، ولم يتيسر لهم أن يحملوا من قاع الاخدود سوى بضع دلاء قليلة من الماء ، فاشتد الفزع ، وامتلأت حافة الهضبة بكتلة متلاصقة من الرجال الذين وقفوا جزعين مضطربين يراقبون امتـــداد السنة اللهيب ، وهم عاجــزون عن اخمادها .

كانت النار المشتعلة فى عمود النباتات المتسلقة قد وصلت الى الطابق العلوى فى البرج ، أى الى المخزن المملوء بالقش ، وسرعان ما اضطرمت فيه وغدا شعلة مروعة ، وكانت السنتها تتراقص رقصا شيطانيا كأنما كانت روح ايمانوس الخبيثة تنفث فيها من شرها وتؤججها .

لم تصل النار بعد الى قاعة المكتبة لسمك الجـدران وارتفـــاع سقفها ، لكن اللحظة الرهيبة كانت آتية لا ريب فيها ، وان هى الا لحظات حتى تطبق السنة النار من أعلى ومن أسفل على الغرفة ، فتحترق ، ويشوى الأطفال شيا .

كان الأطفال الثلاثة مستغرقين فى نوم هنىء .. كانوا يظهرون بجلاء فى فترات متقطعة فى تلك الفجوة النارية التى تضطرم فوقهم وتحتهم يعلوهم الهدوء والسكينة ويشع حولهم نور ملائكى .

كانوا ملائكة راقدين فى جهنم ، كان القبر يوشك ان يطبق عليهم بلا رحمة ، ولو رآهم نمر لبكى .

كانت الأم تصرخ كالمجنونة : النار ! . النار !. . هل انتم صم ؟ . هم يحرقون أولادى ! . تقدموا ! . تقدموا أيها الرجال الذين اراهم هنــــــاك ! . أواه كم من الايام سرت اليهم ! . وهــــذه هى نهاية السير ! . النار ! . النجدة ! . ثلاثة ملائكة ! . ثلاثة ملائكة

يحترقـون ! . ماذا فعلوا وهم أبرياء !؟ اعـــدمونى .. وهم الآن يحرقون اولادى ! . من يعمل هذا ؟ . النجدة . انجدوا اولادى !.

وفيما كانت الأم تردد كلماتها المؤثرة الأليمة .. كانت اصوات اخرى تتردد فوق الهضبة ، وفى الاخدود : سلم ! .

– لا يوجد سلم !

– ماء !

– لا يوجد ماء !

– هناك باب .. فى الحصن .. فى الطابق الثانى .

– هو من حديد !

– حطموه !

– مستحيل !

وفى أثناء ذلك كانت الأم توالى نداءاتها المحزنة : اسرعوا ! . النار ! . انقذوهم ! . أو اقذفونى معهم .

وضع الماركيز يده فى جيبه ولمس مفتاح الباب الحديدى .. واخيرا .. أحنى قامته ودخل الى السرداب الذى نجا منه منـذ قليل .. وعاد أدراجه .

– ٢ –

من الباب الحجرى الى الباب الحديدى

كان الموقف عجيبا . جيش كامل مؤلف من اربعـــة آلاف من الرجال ، يعجز عن انقاذ ثلاثة أطفال !

استحال ايجاد سلم . وازدادت النار انتشارا . وكانت محاولة اطفائها بالمياه القليلة الباقية فى قاع الأخدود كمحاولة اخماد بركان بكوب ماء .

هبط سيموردان وجوفان وجيشام ورادوب الى قاع الاخدود . ثم صعد جوفان الى الطابق الثانى فى الحصن ، حيث يوجد الباب الحجرى الصغير والمنفذ السرى والباب الحديدى المؤدى الى غرفة المكتبة فى البرج . وفى هـذه الغرفة اشـعل ايمـانوس الشريط الكبريتى ، وبدات النار من هذا المكان .

كان امام جوفان امل واحد . هو تحطيم الباب . فامر باحضار عشرين فاسا ومعولا .

جربوا الفئوس . فتحطمت واحدة بعد الاخرى . ثم المعاول . فلم يكن حظها بأحسن من حظ غيرها .

كان الباب مصنوعا من طبقتين من الفـــولاذ المتين ملتحمتين معا ، سمك الطبقة الواحدة ثلاثة قراريط .

ثم استعانوا بقضبان حديدية وحاولوا تحطيم الباب بها . لكنها تحطمت كسابقتها .

غمغم جوفان فى كآبة : لا يمكن فتح هذا الباب الا بمدفع . ليته كان بمكن احضار مدفع الى هذا المكان .

وقف الرجال مغلوبين على أمرهم . حيـــارى . مضطربين . محزونين . لا يدرون ماذا يفعلون .

فقدوا كل امل . وما هى الا دقائق حتى تلتهم النار البرج وتقوض أركانه .

دار جوفان برأسه حوله . ولما وقع نظره على الباب الحجرى والمنفذ السرى لم يتمالك أن هتف غاضبا : من هذا المكان هرب الماركيز دى لانتناك .

فأجابه صوت قائلا : ومنه يعود !

ظهر وجه يجلله المشيب فى فتحة المنفذ السرى .

كان القادم هو الماركيز دى لانتناك .

لم ير جوفان هذا الوجه منذ أعوام طويلة . فلم يتمالك ان تراجع خطوات . ووقف الباقون مشدوهين .

أمسك الماركيز مفتاحا كبيرا فى يده . ونظـــر بأنفه الى حاملى المعاول الذين وقفوا امامه . ثم تقدم راسا الى الباب الحديدى . ودس المفتاح فى قفله .

صر الحديد . وفتح الباب . فانكشف خلفه اتون ملتهب . ودخل المـاركيز اليه رافـع الرأس ، ثابت الخطـا .. وتبعه الواقفـون بنظراتهم .

ما كاد الماركيز يخطو بضع خطوات فى الرواق الملتهب الموصل الى غرفة المكتبة . حتى تصدع السقف الـذى اكلته النيران . وهوى تحت قدميه . وجعل بينه وبين الباب الحديدى هوة عميقة .

على انه لم يلتفت حوله ، بل واصل سيره الى الامام فى ثبات عجيب واختفى فى لفائف الدخان . ولم يعد يراه أحد .

هل تسنى له ان يتقـدم ؟ . هل انفتحت تحت قـدميه هـوة جديدة ؟ هل قضى على نفسه بيديه ؟

لم يجد أحد من الواقفين جوابا على هذه الأسئلة . كان حجاب من نار ودخان يقوم امامهم .. وكان الماركيز خلف هذا الحجاب .. حيا أو ميتا .

– ٣ –

يقظـــــة

فتح الصغار أعيهم اخيرا .

لم تدخل النار بعد الى المكتبة . لكن كان ضوؤها الارجوانى ينعكس فوق السقف . وكانت السنتها القانية تتراقص فى الظلام كأنهـــا نجوم تتلاحق فى صفحة السماء .

وحدث صدوع فى جدران الطابق الاعلى ، واخذت اعواد القش الملتهبة والفئران المذعورة المحترقة تنهال تباعا من النوافذ العليا الى الأرض كأنها مطر من ذهب وفحم .

لم ير الأطفال مثل هذا المشهد . فاستولى على البابهم واستحوذ على عقولهم الصغيرة . ونهضوا جميعا .

صاحت الام : آه ! . استيقظوا !

مد رينيه جان ذراعيه نحو النافذة وقال : حر ! .

فرددت جورجيت كلمته . وصرخت الام :

– أولادى . رينيه . آلين . جورجيت !

تطلع الصغار حولهم . وحاولوا أن يفهموا .

من المواقف مايخيف الرجال ويروعهم . لـكنه يثير الفضول وحب الاستطلاع فى نفوس الاطفال فحسب . وعسير على من يستطلع ان يجزع . والواقع أن الجهل لون من القوة .

رددت الام نداءها : رينيه جان ! آلين ! .. جورجيت !

حول رينيه جان راسه . وايقظه هذا الصوت من حلمه . للطفل ذاكرة قصيرة . لكنها سريعة التحفز . والماضى فى عينيه هو الأمس المنصرم .

رأى رينيه جان أمه . ووجد هذا امرا طبيعيا . فقال . ماما :

وردد كل من آلين وجورجيت هذه الكلمة . وبسطت الطفلة ذراعيها الصغيرتين .

صرخت الام : اولادى !

دنا الأطفال الثلاثة من حافة النافذة . ولحسن الحظ ان النار لم تصل اليها بعد . اذ كانت فى الجانب الاخر .

والتمس رينيه جان أمه بعينيه ، وهتف : ماما !

كانت الأم جامدة فى مكانها مهدلة الشعر ، ممزقة الملابس ، دامية اليدين والقدمين .. وما كادت تسمع هذا النداء حتى فارقها تجلدها وهوت الى الاخدود وهى تتخبط من شجرة الى شجرة ، حيث وقف سيموردان وجيشام مع الجنود ، وهم حائرون مضطربون . عاجزون عن اى شيء . أما جوفان فكان فى مثل حالتهم فوق حافة الاخدود .

هرع رادوب الى حيث سقطت ميشيل فليشار . وما كاد يراها حتى هتف :

– المرأة التى أعدمت ! . اذن عدت الى الحياة من جديد ! .

قالت الام وهى تنتحب : اولادى !

فأجاب رادوب : لك حق .. لا وقت للبحث فى الأشباح .

اما النار فكانت تتزايد انتشارا . ورأى الجميع أيدى الأطفـال الثلاثة تمتد من النافذة . وما لبثت الواح الزجاج فى دواليب الكتب ان سقطت وتحطمت . فأيقن الجميع أن الكارثة ستحل بعد لحظات .. وكان صوت الاطفال يصل الى آذانهم جليا وهم يرددون نداءهم :

– ماما ! ماما .. !

جمدوا فى اماكنهم رعبا . وفجأة .. ظهر هيكل طويل القـامة فى فراغ النافذة حيث وقف الأطفال .

رفعت الرءوس ، وتطلعت العيون . واحتبست الانفـاس فى الصدور .

ظهر رجل فى هـذا الاتون الملتهب . كان وجهه محتجبـا فى الظلام . غير انهم لمحوا شــعره الأبيض . فعـرفوا فيه الماركيز دى لانتناك .

اختفى عن نظرهم . ثم ظهر ثانية . ووقف فى فتحة النافذة ممسكا بيده سلما كبيرا ... كان سلم النجاة الذى وضعه ايمانوس فى غرفة المكتبة . فحمله الماركيز وامسكه من احدى نهايتيه بخفة ونشاط من النافذة الى الأخدود .

اطبق رادوب على السلم حينما صار فى متناول يده ، وهتف :

– تحيا الجمهورية .. !

فصاح الماركيز : يحيا الملك !

لكن رادوب غمغم .

ــ أهتف ما شئت .. لكنك ملاك رحمة ورسول من السماء ! .

استقر السلم على الأرض . وأسرع عشرون جنديا يتقدمهم رادوب وارتقوا درجاته حتى تكون منهم سلم بشرى . ولمس رادوب بيده حافة النافذة . وتدافع الجنود المنتشرون فوق الهضبة وفى الاخدود وعلى قمة الحصن ، وقد جاشت فى صدورهم عواطف مضطربة واحساسات مؤثرة .

اختفى الماركيز . ثم عاد حاملا طفلا بين ذراعيه . فالتهبت الأكف بتصفيق حاد .

كان الماركيز قد حمل اقرب طفل اليه . وهو آلين ، الذى هتف :

ــ انا خائف .. !

ناول الماركيز الطفل الى رادوب . فأسلمه رادوب الى الجندى الواقف تحته .. وأسلمه هذا الى الذى يليه .. وراح آلين ينتقل من يد الى يد وقد اشتد خوفه وأخذ يبكى .

وفى هذه الأثناء غاب الماركيز ثم عاد حاملا رينيه جان الذى كان يتملص بين يديه ويبكى ، وفيما هو يسلمه الى رادوب لطمه بيديه الصغيرتين ، ثم حمل الى الأرض كأخيه .

عاد الماركيز الى داخل الغرفة التى انتشرت فيها النار . فى هذه اللحظة كانت جورجيت وحدها .. فتقدم منها .. فابتسمت .. فلم يتمالك هذا الرجل الصخرى أن ترقرقت الدموع من عينيه .. وسألها :

ــ ما اسمك ؟

فقالت : جورجيت !

حملها بين ساعديه .. ولم تفارق الابتسامة شفتيها .. وفيما هو يهم بتقديمها الى رادوب بهرته طهــارتها ونقاوتها وبراءتها .. فقبلها .

قال الجنود : هى الطفلة الصغيرة .

هبطت جورجيت من يد الى يد حتى وصلت الى الأرض بين صيحات الفرح والابتهاج .. ومن الجنود من راح يصفق .. ومنهم من كان يبكى وينتحب .. أما الطفلة فكانت تبتسم لهم .

وقفت الأم عند نهاية السلم محبوسة الأنفاس ، زائغة الحواس ، مذهولة من هذا التحول الذى ألقى بها من الجحيم الى الجنة .

بسطت ذراعيها .. واستقبلت أولا آلين ، ثم رينيه جان ، ثم

جورجيت .. فغمرتهم بقبلات جنونية .. وضحكت ضحكة [illegible] ثم هوت مغمى عليها .

ارتفعت صيحة بهذه الجملة : نجا الجميع !

نجا الجميع حقا .. الا الكهل .

لكن احدا لم يفكر فيه فى هذه اللحظة .. بل ربما لم يفكر هو فى نفسه .. فقد وقف عند حافة النافذة غارقا فى حلم .. كأنما يريد ان يترك للنار ان تواصل مهمتها .

وأخيرا خطا فوق حافة النــافذة بتؤدة وكبرياء ، رافع الرأس منتصب القامة ، موليا ظهره الى الحريق والى درجات السلم .. وراح يهبط درجات السلم فى عظمة وشموخ كأنه طيف .

وثب الرجال الباقون فوق السلم .. وسرت رعدة فى الجميع .. لكن الرجل أخذ يهبط فى الظلام بهدوء .

ابتعدوا عنه .. اما هو فكان يدنو منهم .. ولم يبد فى صفحة وجهه الشاحب اقل انفعال .. وكان وهو يهبط اليهم يبدو فى أعينهم اكثر شموخا وارتفاعا .

ما كاد الماركيز يستقر على الأرض ، حتى وضعت يد على كتفه .

التفت حوله .. فقال له سيموردان : انى اقبض عليك .

فقال الماركيز : وانا موافق .

الفصل الحادى عشر

النضال بعد الفوز

- ١ -

لانتناك اسـيـر

أخذ لانتناك أسيرا ... وانحدر بيده الى القبر .

كان فى الحصن قبو له باب فى الطابق الأرضى ، وهذا القبو مؤلف من غرفتين .. العليـا وهى على امتداد قاعة الطـابق الأرضى فى الحصن ، ولها باب يفتح فى هذه القاعة .. وكانت مظلمة ، رطبة الهواء .. فى جداريها المتقابلين حفرتان غائرتان لهما تاريخ مروع .. فقد كانت امام كل جدار عجلة ضخمة كان يربط فيها السجين فى العصور الوسطى ، فى كل عجلة ذراع وساق ، ثم تدار العجلتان فى وجهتين متضادتين ، فتمزق أعضاء السجين المنكود .. اما الآن فقد ذهب هذا النظام المروع ولم يبق منه الا اثره فى الجدران .

وفى أرض هـذه الغـرفة فتحة تشرف على القسم الأرضى من القبو ، وهى مقبرة بكل ما فى الكلمة من معنى .. فلم يكن بهـا منفذ آخر غير الفتحة العليا .

وكان هواؤها زمهريرا . وفى قاعها ماء راكد . فاذا أدلى السجين اليها من الغرفة العليا زهقت روحه بعد دقائق معدودات .

اما الآن فقد سدت الفتحة المشار اليها . وجيء بالماركيز دى لانتناك الى غرفة القبو العليا . ففتحت تحت اشراف سيموردان الصارم . ووضع بها مصباح واناء ماء ورغيف من الخبز الجاف وحزمة من القش . وما كاد يمضى ربع ساعة منذ وضع سيموردان يده على كتف الماركيز حتى كان لانتناك أسيرا فى هذه الغرفة ، واغلق بابها عليه . ولما فرغ سيموردان من هذه المهمة ذهب للبحث عن جوفان ،

حيث كانت الساعة فى هذا الوقت قد بلغت الحادية عشرة . وقال سيموردان لتلميذه السابق :

– سأعقد محكمة عسكرية لن تكون من اعضائها . فأنت ولانتناك من أفراد أسرة جوفان . وقرابتك اليه تحول دون جعلك قاضيا له .. وستؤلف المحكمة العسكرية المذكورة من ثلاثة قضاة : ضابط هو الكابتن جيشام ، وصف ضابط هو الجاويش رادوب ، وانا .

وسأتولى الرياسة . وسنلتزم بتطبيق قانون (مجلس الأمة) . وستقتصر مهمتنا على اثبات شخصية الماركيز السابق دى لانتناك . ولن يعنيك شيء من كل هذا .

ستعقد المحكمة العسكرية غدا .. وبعد غد تنصب المقصلة ويقضى على ثورة (فانديه) الى الأبد .

لم يجب جوفان بكلمة واحدة . وتركه سيموردان وذهب لاتمام الاجراءات التى اشار اليها . لقد كان عليه ان يحدد الوقت ويختار المكان . وكان يجب أن يشرف بنفسه على تنفيذ اجراءات الاعدام . وهذه العـادة الغريبة ، أى حضور القاضى بنفسه لرؤية الجلاد وهو يؤدى مهمته ، مقتبسة من محاكم التفتيش الاسبانية ، ومن عهد الارهاب الذى ساد فرنسا فى عام ٩٣ .

كان جوفان كذلك منهمكا فى التفكير . وفى هذا الوقت هبت على المعسكر من الغابة ريح قاسية . فعهد جوفان الى جيشام باعطاء الاوامر اللازمة ، وذهب الى خيمته القائمة على حدود الغـابة عند قاعدة الحصن وتناول عباءته الخاصة والتف بها .

كانت هذه العباءة ذات غطاء يوضع على الرأس ، ولم يكن بها من الزخارف سوى شارة القائد العام .

كانت النار لم تخمد بعد . لكن لم يعد احد يهتم بها . وذهب رادوب الى جانب الأم وأولادها واخذ يواليهم برعايته . واتت النار على بناء البرج . وما بقى منه اعمل فيه الجنود معاولهم . وانهمك الجنود فى حفر الخنادق ودفن القتلى فيها ، ومعالجة الجرحى ، وهدم الاستحكامات وازالة آثار المعـركة المروعة التى دارت بين جدران الحصن التاريخى .

لكن جوفان لم يحفل بهذا كله ولم ينظر اليه . فقد كان منهمكا فى افكاره . ولم يلتفت الى شيء .

وفيما هو كذلك رنت فى اذنه هذه الـكلمات التى سـمعها من

سيموردان : « ستعقد المحكمة العسكرية غدا . وبعد غد تنصب المقصلة » .

اخذ جوفان يسير بتؤدة ذهابا وايابا فى الظلام غير بعيد عن فتحة الحصن ، حيث يوجد الماركيز سجينا فى القبو المجـــاور للطابق الأرضى . وكان من وقت لآخر يمسك رأسه بين راحتيه ، شأن من ينهمك فى تفكير عميق .

– ٢ –

منطق جوفان

وقع تطور عظيم فى خلق الماركيز دى لانتناك .. وشهد جوفان بعينيه مظاهر هذا التطـــــور . ولم يكن يصدق أن الحـوادث مهما تتابعت وتضاربت يمكن أن تؤدى الى مثل هذا التحول .

شهد جوفان معجزة بعينيه . شهد قدر الانسانية على انسان . وكان سلاح هذه المعركة هو .. المهد .

رأى ثلاثة اطفال بؤساء ، يتامى ، منبوذين ، معدومى النصير ، ينتصرون على طغيان الحروب وكوامن الاحقاد . وقد انهزمت كل هذه القوى امام ابتسامتهم البريئة الطاهرة . وكان لهذه المعركة الرهيبة مسرح واحد هو ضمير لانتناك .

لكن المعركة بدأت من جديد . بدات اشد عنفا واضطراما ، وكان مسرحها هذه المرة .. ضمير جوفان .

كان الماركيز محصورا فى الحصن . واعتقد الجميع انه هالك لا محالة ومقضى عليه بالموت ، فاذا هو فى غمضة عين ينجو بمعجزة ، ويفلت من أيدى اعدائه المتعطشين لدمه . ويحتمى فى ظلام الغابة حيث يجند القوى الخفية التى تشد أزره ، ويستأنف الحرب من جديد وهو اشد قوة وأقدر على النضال .

نال الماركيز حريته واصبح طليقا يروح ويغدو حيث يشاء . لكنه لم يلبث ان تخلى عن هـذه الحـرية وعاد الى الموت بمحض ارادته .

فعل الماركيز هذا لكى ينقذ ثلاثة اطفال . فاذا هم يجازونه بالموت وينصبون له المقصلة !

هل كان هؤلاء الاطفال اولاده ؟ . هل كانوا من أسرته ؟

هل كانوا من طبقته ؟ . لا . كانوا اطفالا مجهولين ، من عرض الطريق ، ممزقى الثياب ، حفاه الاقدام ، متسولين .

لكن هذا النبيل ، هذا الامير ، هذا الكهل الذى استرد حريته وانتصر على أعدائه بافلاته من قبضتهم ، هذا الرجل قد ضحى بكل شىء وفقد كل شىء . وفى نفس الوقت الذى اعاد فيه الحياة الى الاطفال ، قدم رأسه فخورا شامخا .

كان للماركيز أن يختار بين حياته وحياة غيره . فاختار الموت فى نبله وسموه . وسوف يقتلونه . فيـا له من جزاء للبطولة !

سوف تهوى سكين المقصلة فوق عنق هذا الجنـــــدى المظلوم والشيخ القوى والمحارب الأعزل . وسيحدث هـذا بحضور جوفان القـائد وتحت سـمعه وبصره ، دون أن يتدخل او يبـدى ادنى اعتراض .

لكن .. ألم يكن جوفان ينشد موت هذا الرجل ويسعى الى تسليم رأسه الى سيموردان ؟ صحيح ان جوفان كان يتوق الى هذا ويعمل جاهدا لتحقيقه حينما كان لانتناك رجلا سفاحا يقتل الأسرى ويجرى الدماء انهارا ويحصد الارواح حصدا بلا رحمة . لكن لانتناك القاتل اختفى وتلاشى . وظهر على المسرح لانتناك آخر . واستحال الوحش الى انسان رحيم منقذ ، يشع منه نور سماوى يبهر الانظار .

وفى الوقت الذى يتطور فيه لانتناك هذا التطور يبقى جوفان جامدا كما كان ! . فهل يقبل هذا ؟ . وهل يقف مكتوف اليدين أمام البطولة النادرة التى أبداها لانتناك ؟

لابد أن ينقذ لانتناك جزاء بطولته وشهامته .

لكن فرنسا ؟ . هل يعرضها بانقاذ الماركيز للخطر الرابض فى المحيط ، الذى ينتظر الفرصة المناسبة للانقضاض عليها ؟

ان لانتناك لا يكاد ينجو من سجنه حتى يمد يده الى انجلترا ، ويقول لها ، « تعالى . خذى فرنسا » .

فهل يقدم جوفان على هذه الخطوة ؟ هل يرتكب هذه الجريمة ؟ هل يطلق سراح لانتناك حتى يفتح أرض الوطن للغزاة المتربصين ؟ هل يتركه حتى ينفخ من جديد روح الثورة فى ميادين (فنديه) ويؤلب جيوشها ؟ . هل يقدم جوفان على هذا بعد أن بات لانتناك اسيرا ينتظر الموت بين ساعات ؟

لا ريب أن لانتناك لا يكاد يسترد حريته حتى يعود كما كان ، قاسيا لا يرحم ، يحرق البيوت ، ويذبح الأسرى ، ويقضى عـلى

الجرحى ، وبعدم النساء ... وفوق هذا كله .. أليس جوفان مبالغا فى تقديره لهذه البطولة التى أبداها لانتناك ؟ أنقذ لانتناك ثلاثة أطفال كانوا هالكين . لكن من ذا الذى قذف بهم الى الهلاك ؟ . أليس هو لانتناك ؟ . من وضع أسرة الأطفال الثلاثة فى البرج الملتهب ؟ . ان المسئولية فى هذا الفعل تقع على عاتق القائد . وإذن فالجانى هو لانتناك . فمـــا الذى فعله حتى يستحق التقـــدير والاعجاب ؟ كل ما فعله انه لم يندفع الى النهاية فى اتمام الجريمة . ولما سمع صرخات الأم افاق لنفسه وقدر هول الجريمة وبشاعتها . فوقف فى منتصف الطريق . ولم ينسق فى الاجرام الى الغاية .

هذا كل ما فعله . فمن أجل هذا القليل ، يمنحه جوفان حريته وحياته ، حيث ستأنف الحرب من جديد ، ويعــود الى القتل والتخويب ؟!

على انه اذا سعى جوفان لاقناع لانتناك بالعدول على خطته ونفض يديه نهائيا من الحرب اذا أطلق سراحه ، فلن يــكون نصيبه غير الفشل ، فهو يعرف لانتناك . ولن يكون جوابه له الا هذه الكلمات : « ألبس أنت هذا العار . اقتلنى ! » .

لم يكن هناك ما يفعله جوفان نحو هذا الرجل الا ان يقتله او يحرره . ففى الأولى عذاب وألم لنفسه . وفى الثانية مسئولية ، وعبء جسيم .

ثم عاد جوفان ثانية الى النقطة الاولى التى كانت مدار تفكيره . هل لا يزال لانتناك حقا ذلك النمر المفترس الذى يتصوره ؟ . هل هو كذلك بعد هذه التضحية النبيلة التى قام بها ؟ . وبعد ان برهن على نكران الذات والانسانية والتسامى على أحقاد الحروب ، وبعد ان ادى واجبه السامى الذى تمثل فى اعتراف القوى بحق الضعيف فى حمايته ؟ . هل لا يزال كذلك بعد أن ضرب أروع الأمثال وقدم حياته ونزل عنها طائعا مختارا ؟ . هل يمكن ان يبقى نمرا من قام بهذه الأفعال وقدم هذه الامثال ؟ . هل يجب أن يعامل بعد هذا كله معاملة الوحوش ؟

لا . لا . ان الرجل الذى بدد ظلمات الحروب الأهلية ووحشيتها بهذا النور السماوى ليس نمرا ولا وحشا . ان لانتناك قد كفر عن كل مساوئه الماضية بهذه التضحية التى اقدم عليها . ان تسليم نفسه لأعدائه قد طهر روحه . فاستحق العفو والصفح .

ضرب لانتناك بتضحيته مثلا اعلى . فعلى جوفان ان يقتدى به .

فماذا يفعل ؟ . هل يتخاذل عن اداء هذا الواجب الذى ألقته الاقدار على عاتقه ؟ . لا .

غمغم جوفان لنفسه : « لننقذ لانتناك » . فاجابه صوت آخر : « حسنا . أنقذ لانتناك . ساعد انجلترا . سلم فرنسا للاعداء » .

ارتعد جــوفان . ولم يدر اى الســبيلين يسلك . وباى الرايين يأخذ .

هل يترك الماركيز يهلك ؟ . هل ينقذه ؟ . اين الواجب فى هذين الطريقين المتنافرين ؟

– ٣ –

عباءة القـــائد

انتصف الليل . ثم أذنت الساعة الواحدة .

اخذ جوفان يدنو من فتحة الحصن شيئا فشيئا دون ان يفطن لذلك .

كانت ألسنة النار لا تزال تخبو وترتفع . وفجأة اندلع لسان من اللهيب أضاء قمة الهضبة ، وكشف عن هيكل مركبة .

حدق جوفان فى المركبة . فرآها محوطة بفرسان .

كان بعض الرجال فوق المركبة ينزلون حملها . كان ثقيلا ، يصدر منه بين لحظة وأخرى رنين كرنين الحديد . وتعاون رجلان على حمل صندوق وضعاه على الأرض ، كان يبدو من شكله انه يحتوى جسما مثلث الشكل .

تلاشى لسان اللهب . وغمر الظــلام كل شىء كما كان . ووقف جوفان شارد الذهن يحدق الى ما يخبئه الظلام فى طياته .

اضيئت المصـــابيح .. واخذ الرجال يروحون ويجيئون فوق الهضبة . لكن أشباحهم كانت مختلطة . كما كان جوفان فى ناحية الأخدود المنخفضة . ولذلك لم يستطع ان ينظر ما يجرى ... وكان يسمع بين وقت وآخر صوت ارتطام أخشاب توصل بعضها ببعض . كما سمع صوتا غريبا كأنه شحذ سلاح معدنى .

دقت الساعة الثانية .

وتقدم جوفان الى فتحة الحصن كأنما تدفعه قوة قاهرة لا يقوى على مغالبتها . ولما دنا عرفه الحارس من عباءته ، فرفع سلاحه فى تحية عسكرية .

دلف جوفان الى قاعة الطابق الأرضى ألتى تحولت الى غرفة للحرس . كان مصباح يتدلى من سقفها . واستطاع جوفان فى ضوئه أن يجتاز القاعة دون أن يدوس على الجنود الذين تمددوا فوق القشّ وقد نام اكثرهم لشدة التعب بعد المعركة الطاحنة .

نهض بعض الجنود عند دخول جوفان ، وبينهم الضابط المنوب .

فأشار جوفان بيده الى باب القبو ، وقال للضابط : افتح الباب .

رفع المزلاج . وفتح الباب . ودخل جـوفان . ثم اغلق الباب خلفــه .

– ٤ –

السـجين

كان الماركيز الأسير يروح ويجىء فى سجنه كالاسد فى قفصه ، حينما فتح الباب .

رفع الماركيز راسه عند سماعه صوت فتح الباب واغلاقه ، فسطع ضوء المصباح الموضوع فوق الأرض على وجهه وعلى وجه جوفان معا . تبادلا النظر . ورأى كلاهما فى عينى صاحبه ما أوقفه فى مكانه جامدا .

ثم ضحك الماركيز أخيرا ضحكة قوية وهتف :

– عم مساء يا سيدى .. لم اتشرف بمقابلتك منذ زمن طويل .. ان هذه الزيارة فضل منك .. شكرا لك .. لا أطمع الا أن اتحدث قليلا .. كدت امل هذه الوحدة .. ان اصدقاءك يضيعون وقتــا طويلا فى اجراءات المحكمة العسكرية التى يتشبثون بها . ويمكن ان تختصر هذه الاجراءات وان انتهى بسرعة . هأنذا فى بيتى وبين جدران حصنى . لا بأس .. ما رأيك فى كل ما يحدث ؟ ستقول انه طبيعى .. اليس كذلك ؟ سأتشرف بمعرفة المقصلة صباح غد .. فهل ستقوم بمهمة الجلاد ؟ . اما اذا كانت هذه زيارة عادية ، فانك تملأ قلبى تأثرا .. ربما لم تعد تعرف يا فيكونت من هو النبيل ! .. لا بأس .. أمامك واحد .. هو أنا .. انظر الى . هو يؤمن بالله

.. ويقدس التقاليد ، والاسره ، والسلف . هو يدين بالطاعه والولاء لمليكه ، ويحترم القوانين الوراثية ، والفضيله ، والعداله ، ويجد لذة فى اعدامك .

ارجو ان تتفضل بالجلوس . لا حيلة فى جلوسك على الارض ، فليس بغرفتى مقعد وثير يليق بك !

هذه غرفة قديمة تاريخية فى قصرى .. كان النبلاء قديما يحبسون الدهماء بين جدرانها . فاذا الدهماء الآن يحبسون النبلاء فيها .. وهذا هو ما تنعتونه بالثورة . يلوح ان راسى سيقطع فى ظرف ست وثلاثين ساعة .. ليكن .. لا أرى غضاضة فى هذا .. لكن لو كان آسرى أكثر أدبا ومجاملة لأرسلوا الى علبة سعوطى .. هى موجودة فى قاعة المرايا حيث كنت تلهو وتلعب فى طفولتك . حيث كنت أدللك واحملك على ركبتى .

سيدى .. اسمح لى ان أقول لك شيئا واحدا . انك تنسب نفسك الى أسرة جوفان . ومن عجب أن الدم النبيل يجرى فى عروقك وهو نفس الدم الذى يجرى فى عروقى . لكن هذا الدم الذى جعل منى رجلا شريفا ، قد خلق منك وغدا شريرا .

كان الماركيز يتكلم بهدوء ، واضعا يديه فى جيوبه ، ثم امسك عن الكلام ، واستنشق الهواء ، واستطرد :

– لا أخفى عليك انى بذلت جهدى لقتلك . بل لعلك رايت بعينيك انى سددت اليك مدفعا بيدى ثلاث مرات .. صحيح ان هذا عمل خلو من المجاملة .. ولكن العدو فى أوقات الحروب يضرب اسوأ الأمثال لو تمسك بتقاليد المجاملة فنحن نتحارب ، يا سيدى ، وابن أخى . والكلمة فى هذه الأيام للنار والسيف .. هذا زمن عجيب !

توقف الماركيز مرة ثانية ، ثم استطرد بعد قليل :

– علم الله ما كان يحدث شىء من هذا لو أن فولتير شنق ، واعدم روسو بالمقصلة ، فى الوقت المناسب .. آه من اولئك المفكرين ! .. فهم اس هذا البلاء ! . وما دام فى الدنيا كتاب ، فهناك التحريض واعمال العنف ! . ان الكتب أسباب الجرائم .. وكم يدفع الانسان غاليا بسبب هذا اللغو ! .. ما هى الحقوق التى تتشدقون بها ؟ . هى القتل والتدمير ! اليس هذا من البشاعة بمكان ؟ . « انى ارثى لك يا سيدى .. لكنك تنتمى الى أسرة جوفان النبيلة . ولأجدادك تاريخ حافل بالمخاطر . وفى وسعى أن اسهب لك فى بيان تفاصيله . لكن ما الفائدة ؟ . انك تتشرف بأن تكون أحمق مأفونا ، وتضع نفسك

فى مرتبة حوذى مركبتى .

لست ادرى على أى صورة تنتهى هذه المحنة ، وقد دمرتم كل شيء ولم تبقوا على شيء .. ليكن أيهـا المواطنون ! . انتم سادة الموقف ! . احكموا ! . تمتعوا . افعلوا ما يحلو لكم ؟ . لا تتورعوا عن شيء ! . ولكن هذا كله لن يغير حرفا من الحقيقة الراسخة .. وهى ان الدين هو الدين .. وان تاريخ الملكية يحتل خمسة عشر قرنا فى تاريخ بلادنا .. وان نبلاء فرنسا اسمى وأرفع منكم ، حتى بغير رءوس لـ . استمروا فى أفعالكم ! كونوا رجال العهد الجديد ! . انحطوا ! .

انى تكلمت .. فمر باعدامى يا سيدى الفيكونت . اننى أتشرف بأن اكون خادمك المطيع .

ثم اضاف الماركيز بعد هذه العبارة :

ــ آه . انى لم اتردد فى بسط الحقيقــة أمام نظــرك . ماذا يهمنى ؟ . انا ميت .

تكلم جوفان لأول مرة ، فقال :

ــ انت حر .

خلع جوفان عباءة القيادة ، ودنا من الماركيز وطرحها فوق كتفيه ، ثم وضع الغطاء فوق رأسه واسدله حتى عينيه .. وكان كلاهما متشابه القوام .

قال الماركيز :

ــ ماذا انت فاعل ؟

رفع جوفان صوته ونادى :

ــ افتح الباب أيها الملازم !

فتح الباب . وقال جوفان :

ــ أغلق الباب باحكام خلفى .

ودفع الماركيز بيده الى باب الغرفة ، وقد أخذ الذهول من نفسه كل مأخذ .

كانت قاعة الطابق الأرضى قد تحولت الى غرفة للحرس كمــــا تقدم ، وكان بها مصباح ضعيف يرسل نورا ضئيلا . ورأى من لم يكن نائما من الجنود فى هذا الضوء الكليل شبح رجل طويل القامة ، ملتف بعباءة القيــادة وعلى رأسه غطاؤها ، يمر فى وسطهم ويتجه الى المدخل . فأدوا التحية العسكرية وسار بينهم .

اجتاز الماركيز غرفة الحرس بتؤدة .. ثم الفتحة ، حيث اصطدم

رأسه بأحجارها الناتئة اكثر من مرة .. ووصل الى الخارج .

اعتقد الحارس الواقف خارج الفتحة انه يرى القائد جوفان ، فأدى التحية العسكرية .

وصل الماركيز الى الخارج . حيث كانت الغابة على بعد امتار منه ، وأمامه الحرية والحياة والجو الطليق ، لـكنه وقف ، وبقى فى مكانه جامدا كانسان ترك نفسه يدفع واستسلم لهذه المفاجأة ، حتى اذا خرج ووقف عند الباب المفتوح ، راح يسائل نفسه : هل احسن او أساء ؟ . وتردد فى التقدم ومواصلة السير ، واخذ يصغى للهاتف الأخير فى أعماق نفسه .

رفع الماركيز راسه بعد تفكير عميق .. وغمغم : « الواجب » .

ثم واصل السير .

اما باب القبو فقد أغلق على جوفان .

ــ ٥ ــ

المحكمة العسكرية

كان رئيس المحكمة العسكرية فى عام ١٧٩٣ فى فرنسا هو كل شيء فى المحكمة .. فهــــو يختار الأعضاء ، ويشرف على اجراءات المحاكمة ، وهو الرئيس والقاضى معا .

أختار سيموردان مكان المحكمة فى قاعة الطابق الارضى فى الحصن التى تحولت الى غرفة الحرس ، فقد اراد ان يختصر الطريق الى المحكمة ، ثم الى المقصلة .

انعقدت المحكمة بأمر سيموردان عند الظهر .. ولم يكن بالقاعة سوى ثلاثة مقاعد من القش ، وطاولة من خشب الصنوبر ، وثلاث شمعات ، ومقعد بغير ظهر امام الطاولة .

كانت المقاعد الثلاثة للقضاة ، والمقعد الأخير للمتهم .. ووضع كذلك عند طرفى الطاولة مقعدان مشابهان لمقعد المتهم ، أحدهما لممثل الاتهام ، وهو برتبة ضابط ، والثانى لكاتب الجلسة ، وهو جاويش .

ووضع فوق الطاولة قضيب من الجمع الأحمر ، وختم نحاسى من أختام الجمهورية ، ومحبرتان وبعض أوراق بيضاء ، ونشر فوقها اعلانان ، يتضمن أولهما الأمر القاضى باهدار حقوق لانتناك واصحابه ، والثانى (قانون مجلس الأمة) .

وزين المقعد الاوسط بطائفة من أعلام مثلثة الالوان .. وكان معدا لجلوس الرئيس ، ووضع مواجها لباب السجن .

وتألف جمهور النظارة من الجنود .. ووقف حارسان على جانبى مقعد المتهم .

جلس سيموردان فى المقعد الأوسط .. وعن يمينه الكابتن جيشام القاضى الأول ، وعن يساره الجاويش رادوب القاضى الثانى .

كان سيموردان يضع على راسه قبعة ذات شارة مثلثة الالوان ، وقد تمنطق بسيفه وتدلت طبنجتاه حول وسطه ، واكتسبت سحنته طابعا وحشيا بسبب الجرح الذى اصابه فى وجهه فى معركة (دول) .

وقبيل افتتاح اجراءات المحاكمة كتب سيموردان رسالة الى (لجنة الأمن العام) فى باريس بعث بها مع رسول خاص ، وكان نصها كما يلى :

« ايها المواطنون اعضاء لجنة الأمن العام — وقع لانتناك اسيرا . وسيعدم غدا » .

وحالما فرغ سيموردان من هذه الرسالة قال بصوت مرتفع :

— افتحوا باب السجن .

رفع حارسان المزلاج ، وفتحا الباب ، ودخلا الى السجن .

رفع سيموردان رأسه ، وشبك ذراعيه ، وركز نظره فى باب السجن ، وهتف :

— احضروا السجين .

ظهر رجل بين حارسين عند الباب ، ووقف .

كان جوفان .

انتفض سيموردان .. وهتف :

— جوفان !

ثم استطرد :

— انى طلبت السجين !

فقال جوفان :

— هو أنا .

— أنت .. ؟!

— ولانتناك ؟

— هو حر .

— حر .. ؟!

— نعم .

— أفلت .. ؟

— أفلت ..

قال سيموردان متلعثما وهو يرتعد :

— الحقيقة أن الحصن ملك له .. وهو يعرف كافة منافذه ولا يبعد أن يكون القبو متصلا بمنفذ سرى . وكان يجب ان افطن الى أنه قد يجد وسيلة للافلات . دون أن يحتاج الى مساعدة من أحد .

فقال جوفان :

— هناك من ساعده .

— على الافلات ؟

— نعم .

— من ساعده .. ؟

— أنا .

— انت تحلم .. !

— انى دخلت الى القبو . وبقيت وحدى مع السجين . وخلعت عباءتى ووضعتها فوق كتفيه وحجبت رأسه بالغطاء . فذهب فى مكانى وبقيت فى مكانه . وهأنذا .

— انت لم تفعل هذا .. !

— بل فعلته .

— مستحيل !

— بل هو الواقع .

— احضر الى لانتناك .

— لم يعد هنا .. حسبه الجنود انا حينما رأوا عباءة القائد . وتركوه يمر .. وكان الوقت ليلا .

— انت مجنون !

— انى قررت لك ما حدث .

ساد الصمت .. وقال سيموردان فى تلعثم : اذن فقد استحققت .

فقال جوفان :

— الموت .

امتقع وجه سيموردان حتى غدا كوجوه الموتى . وجلس فى مكانه كالمصعوق . وسال العرق فوق جبينه . ولم يعد يتنفس .
حاول أن يكسب صوته رنة الجمود والتماسك ، فقال :
— أيها الجنود .. اجلسوا المتهم .
جلس جوفان فوق المقعد .
فاستطرد سيموردان :
— ايها الجنود .. ارفعوا السيوف .
ثم قال وقد استعاد صوته رنته المألوفة : قف أيها المتهم .

— ٦ —

الحكم

نهض جوفان .. فسأله سيموردان : ما اسمك ؟
فاجاب بلا تردد : جوفان .
— من انت ؟
— انا قائد جيش السواحل الشمالية .
— هل تقرب أو تتصل بالرجل الذى افلت ؟
— انا ابن اخيه .
— هل تعرف قانون (مجلس الأمة) ؟
— انى اراه مكتوبا فى الاعلان الموضوع على الطاولة .
— هل عندك ما تقوله بصدد هذا القانون ؟
— انى عززته بتوقيعى .. وامرت بتنفيذ منطوقه .
— اختر لك محاميا .
— سأدافع عن نفسى .
— تكلم .
عاد سيموردان الى سابق صلابته وجموده .. وبقى جوفان صامتا لحظة كأنما يستجمع أفكاره .. فقال سيموردان : ما هو دفاعك ؟
رفع جوفان راسه متمهلا ، وقال :
— ليس لدى ما اقوله غير هذا .. هناك شيء واحد حجب عن عينى كل ما عداه .. هناك عمل نبيل واحد حجب عن نظرى مئات الاعمال الآثمة .
فى احد الجانبين رجل كهل .. وفى الجانب الثانى ثلاثة اطفال .

وكلاهما وقف بينى وبين واجبى .
نسيت القرى المحترقة .. والحقول التالفة .. والأسرى المذبوحين والجرحى المقضى عليهم .. والنساء المقتولات .
نسيت التواطؤ مع انجلترا على فرنسا .. واطلقت سراح قاتل الوطن . انا مذنب .. ويخيل اليكم وانا اقرر هذا انى أتكلم ضد مصلحتى . لكن هذا خطأ .. انا اتكلم فى مصلحتى .
اذا اقر المذنب بجريرته .. فهو ينقذ شيئا واحدا جديرا بالانقاذ . ينقذ شرفه .
قال سيموردان : هل هذا كل دفاعك ؟
— سأضيف كلمة أخرى .. لما كنت القائد ، فلكم على حق .. ولما كنتم القضاة ، فلى عليكم حق .
— وما هو الحق الذى تطلبه ؟
— موتى .
— هل ترى هذا عدلا ؟
— ولازما .
— اجلس .
نهض الضابط ممثل الاتهام ، وتلا أولا قانون اهدار حقوق الماركيز دى لانتناك السابق وثانيا قانون (مجلس الأمة) الذى ينص على انزال العقاب الصارم بكل من يعمل على تسهيل الهرب لاحد من الأسرى الثائرين .. واختتم تلاوته بتلك الأسطر المذيلة فى أسفل الاعلان التى تحظر « تقديم المســاعدة الى العصاة » والا تعرض المخالفون للاعدام ، وهى التى وقعها جوفان «قائد جيش السواحل».
جلس ممثل الاتهام على اثر ذلك . فشبك سيموردان ذراعيه وقال :
— اصغ ايها المتهم . صمتا ايها الجمهور . سمعتم نص القانون . ستؤخذ الأصوات . وسيصدر الحكم بأغلبية الآراء . وسيعلن كل قاض قراره بصوت مسموع فى حضور المتهم ، فليس للعدالة ما تخفيه.
ثم استطرد سيموردان :
— سيعطى القاضى الأول صوته . كابتن جيشام . تكلم .
لم ينظر جيشام الى سيموردان او جوفان ، بل خفض بصره وركز عينيه فى الاعلان المتضمن القانون ، وقال :
— القانون ثابت لا يتغير . والقاضى اكثر واقل من انسان . اقل من انسان لانه لا قلب له .. واكثر من انسان لانه يشهـــر سيف

العدالة . فى عام ٤١٤ قبل الميلاد اعدم مانليوس الرومانى ابنه لارتكابه (جريمة) قهر أعدائه بغير امره . هذا مثل ضرب فى انتهاك النظام . وهنا قانون انتهكت حرمته . وما يزال القانون أرفع شأنا من النظام . تعرض الوطن للخطر من جديد بسبب عاطفة شفقة .. وقد تبلغ الشفقة مبلغ الجريمة . ان القائد جوفان اعان الثائر على الهرب . فهو مذنب .. وارى له الموت .

فقال سيموردان : سجل ايها الكاتب .

سطر الكاتب هذه الجملة : « الكابتن جيشام : الموت » .

رن صوت سيموردان واضحا ســاكنا : احسنت يا جيشام . اشكرك .

ثم استطرد سيموردان :

— دور القاضى الثانى .. تكلم ايها الجاويش رادوب .

ثم قال :

نهض رادوب ، والتفت الى جوفان ، وادى له التحية العسكرية ، ثم قال : اذا كان هذا ما تفعلون ، فاعدمونى اذن ، لأنى أقرر.لكم امام الله ، واقسم بشرفى ، انى ما كنت اتردد فى ان أفعل أولا ما فعله الكهل وان افعل ثانيا ما فعله قائدى .

حينما رأيت ذلك الـكهل الذى بلغ الثمانين يثب بين السنة اللهيب لانقاذ ثلاثة اطفال من براثنها ، قلت لنفسى : « ايها الـكهل .. انت رجل باسل » .

وحينما اسمع الآن ان قائدى قد انقذ الكهل من سكين مقصلتكم اللعينة ، اقول بملء صوتى : « يا قائدى . انعم بك من رجل .. ولو كان الأمر بيدى ، لمنحتك وسام القديس لويس ، لو بقيت أوسمة ، او بقى قديسون » .

ايها الناس ! . هل سيدور بنا الزمن ؟ ونفقد عقولنا ؟ لو كان لاجل هذه النهاية ما كسبناه من المواقع المشهودة ، فعلى الدنيا السلام !

ماذا ؟ امامكم القائد جوفان ذلك الذى قضى اربعة اشهر يدافع عن الجمهورية بحد سيفه ، وفعل فى (دول) العجائب . فهل تتخلصون منه ، وتفصلون رأسه ، بدلا من تنصيبه قائدا عاما ؟! هذه حالة تذهب العقل ، وتفقد الصواب !

ايها المواطن جوفان . أيها القائد .. لو كنت جنديا تحت امرتى لا قائدى ، لوصفت كلامك الذى صرحت به الآن باللغو والمجون .

ان الـكهل اتى عملا نبيلا بانقاذ الأطفال .

وانت اتيت عملا نبيلا بانقاذ الـكهل .

واذا كنا نعدم الناس جزاء الأعمال النبيلة التى يفعلونها ، فلتذهبوا اذن الى جهنم ! . ولتخطفكم الشياطين ! . فقد انعـــدم المنطق واختلط الخير والشر .

ليس هذا صحيحا ! . انى لا اصدق ما ارى ! . هل انا فى حلم ؟ لست افهم ! . هل كنتم تريدون أن يترك الـكهل الأطفال يحترقون احياء ؟ .. هل كنتم تريدون ان يترك قائدى راس الكـهل يقطع بالمقصلة ؟

انظروا الى ! . اعدمونى ! . انى ما كنت اتردد فى ان افعل ما فعل . ولو ان الاطفال قتلوا لتلوثت الفرقة الحمراء بالعـار والفضيحة .. فهل هذا ما كنتم تريدون ؟ اذن ليهلك كل منـا اخاه ! . ولنمت جميعا ! . انى افهم فى السياسة ما يفهمه كل منكم .. وقد انضممت الى احزاب الثورة .

اننا ندنو من نهايتنا . انى احكم على الموضوع من وجهة نظرى اليه .

لماذا نتقدم للموت ونجود بأرواحنا ؟ . الـكى يقتل زعيمنا ؟ كلام فارغ ! . سأدافع عن قائدى ! . انى احبه اليوم اكثر مما احببته من قبل .

• ترسلونه الى المقصلة ! انتم تضحكوننى ! لن نسمح ان يحدث هذا بيننا ! .

عاد رادوب الى الجلوس . وانفتح جرح فى رأسه اثناء دفاعه الحار ، وسال الدم فوق عنقه . التفت سيموردان الى رادوب وساله:

— هل تعطى صوتك ببراءة المتهم ؟

فأجاب رادوب : انى أطلب أن يكون قائدا عاما .

— أسألك اذا كنت تعطى صوتك ببراءته ؟

— انى اطلب ان يكون على رأس الجمهورية ؟

— ايهـا الجاويش رادوب . هل تعطى صـوتك ببراءة القـــائد جوفان ؟ نعم . أو . لا ؟

— انى اطلب ان تقطع رأسى مكانه .

فقال سيموردان : براءة . سجل ايها الكاتب .

سطر الكاتب هذه الحملة : « الجاويش رادوب . براءة » .

ثم قال الكاتب : صوت بالموت . وصوت بالبراءة .

جاء دور سيموردان . فنهض من مكانه . وخلع قبعته ووضعها فوق الطاولة .

لم يعد وجهه شاحبا أو متقلصا . بل كان فى لون الطمى .

ساد سكون رهيب كسكون الموت . وقال سيموردان فى صوت رصين متئد ثابت : أيها المتهم . تم سماع القضية . باسم الجمهورية، حكمت المحكمة العسكرية بأغلبية صوتين ضد صوت واحد .

توقف سيموردان عن اتمام النطق بالحكم . كأنما يتردد فى اصدار حكم الموت أو الحياة .. وجزعت النفوس .. واحتبست الأنفاس فى الصدور .

ثم استطرد سيموردان : حكمت عليك بالاعدام .

شاعت فى وجهه اشراقة يسيرة هى صدى انتصاره المروع على المعركة الطاحنة التى ثارت فى نفسه . على انها لم تستغرق الا ثوان .وعاد الى وجهه امتقاعه السابق . وجلس فى مقعده . ووضع قبعته على رأسه ، ثم قال : جوفان . ستعدم غدا عند شروق الشمس .

نهض جوفان . وحيا . وقال : اشكر المحكمة .

فقال سيموردان : اذهبوا بالمحكوم عليه .

فتح باب القبو . ودخل جوفان .واغلق الباب . ووقف الحارسان على الجانبين وقد شهر كلاهما سيفه بيده .

وهوى الجاويش رادوب على الأرض مغمى عليه . فذهبوا به .

— ٧ —

بين اليأس والرجاء

امتلأت نفوس الجيش المظفر الذى استولى على حصن (لاتورج) باحساسات متناقضة . وكانت هذه الاحساسات موجهة اول الأمر ضد القائد جوفان . حينما علموا بفرار لانتناك . فما كاد يظهر جوفان من القبو محل الماركيز دى لانتناك حتى انتشر النبأ بسرعة البرق . وذاع بين افراد الجيش جميعا فى طرفة عين . ثم راحوا يتهامسون بهذه الكلمات « سيحاكمون جوفان . لكن هذه لعبة . هل يمكن الوثوق بالنبلاء والقسس ؟ . قد رأينا فيكونت ينقذ ماركيزا . وسنرى قسا يصفح عن نبيل ؟ » .

على انه ما كاد يذاع نبأ الحكم على جوفان بالاعدام حتى علت نغمه جديده . راحوا يقولون : « هذا فظيع ! . زعيمنا ! زعيمنا الباسل ! قائدنا الشاب ! . بطل (دول) و (لاتورج) ! سيف الجمهورية فى (فنديه) ! هل يجرؤ المدعو سيموردان على اعدامه ؟! ولاى سبب ؟ . لانه انقذ ثلاثة اطفال .. قس يقتل جنديا ! » .

بهذه الأقوال راح الجيش يتحدث . واستهدف سيموردان لغضب شديد .

أربعة آلاف جندى ضد رجل واحد . جدير بهذا العدد ان يكون قوة هائلة .

لكنه لم يكن . فقد كان هؤلاء الأربعة الآلاف ، جمهورا . أما سيموردان فكان يمثل (الارادة) العاتية الصارمة . وكان المعروف ان سيموردان يغضب بسرعة ؟ وهذا ما جعل رجال الجيش يهابونه ويخشون بأسه .

كان يكفى الانسان فى ذلك العهد أن يكون مستندا الى (لجنة الأمن العام) تؤيده وتشد أزره وتجعل منه رجلا مخيفا . فلا تلبث الصيحات ان تستحيل الى همس ، والهمس الى سكون .

بقى سيموردان قبل هذه الاحتجاجات وبعدها ، المسيطر على مصير جوفان ، وعلى مصائر الجميع .

كانوا يعلمون انه لا سبيل الى التماس شيء منه ، وانه لا يخضع الا لصوت ضميره .

كان كل شيء منوطا به وحده ، معلقا عليه .

على أن ما أبرمه كقاض يطبق القانون العسكرى يمكن ان ينقضه كمندوب أهلى .

قد يمكن أن يرحم وأن يترفق ، فهو يجمع فى يده سلطة مطلقة وفى وسعه باشارة أن يمنح جوفان الحياة والحرية . فهو فى هذه اللحظة العصيبة رجل الساعة .

وارخى الليل سدوله وهم يعللون أنفسهم بهذه الآمال ، وليس لهم الا ان ينتظروا .

— ٨ —

عند شروق الشمس

بزغ الفجر . وعند بزوغه ظهر جسم غريب جامد غامض فوق

هضبـة (لاتورج) ، وكان يشرف من هـذا الارتفـاع على غابة (فوجير) .

وضع فى هذا المكان ليلا . ويكاد يخيل للناظر انه وثب فجاة الى موضعه وان الأيدى لم تقم بانشائه .

على ان الناظر اليه لا يكاد يلمحـه حتى تسرى فى جسـده قشعريرة .

فهو المقصلة .. الدليل الناطق بوحشية الانسان .

ان الطبيعة صارمة . فهى لا تخفى أزهارها وموسيقاها وطربهـا وشمسها المشرقة ولا تحجبها عن قسوة الانسان او آلامه .. بل هى تحير الانسان بشدة التناقض بين جمالها السماوى وروعتهـا القدسية ، وبين وحشيته وقسوته . يقتل الانسان ويدمر ويخرب ويحطم . لكن جمال الطبيعة هو هو . ويبقى النجم هو النجم . والزهرة هى الزهرة .

اشرقت الطبيعة هذا اليوم فى عنفوان بهائها وروعتها . وكان كل شىء فى هذا المحيط ينطق بالطهر والبراءة . وهى نصيحة الطبيعة الخالدة الى الانسان .

فى ابان هذا الجمـال السماوى انـكشف خزى الانسان وعاره الأبدى وظهرت المقصلة : رمز الجهالة والعقاب .

كانت الخليقة الزهرة الباسمة ، والطبيعة الساحرة الرائعة ، والسماء الذهبية الصـافية — كانت جميعـا تشرف على الآلة الجهنمية ، وكأنها تقول للانسان : « انظر الى ما اصنع ! . والى ما تصنع !» .

كان لهذا المشهد جمهوره . فقد التف جيش الساحل حول المقصلة وانتظم الجنود على جوانبها صفوفا عسـكرية متراصة . ووقف رجال المدفعية حول مدافعهم متأهبين .

وارتفع حصن (لاتورج) فوق هذا المشهد . ولم يكن يفصل قمته المسطحة عن المقصلة سوى فراغ الأخدود .

ووضعت فوق قمـة الحصن طاولة المحكمة العسـكرية والمقعد المظلل بالأعلام المثلثة الالوان . ولما ارتفعت الشمس فى كبد السماء ظهر فوق القمـة هيكل رجل جلس تحت الأعلام جامدا مشبك الذراعين .

كان الجالس سيموردان .

كانت تعلو راسه القبعة المثلثة الألوان .. ويتدلى حول وسطه

سيفه وغدارتاه .

جثم صمت . ووقف الجنود جميعا خافضى الانظار ، شاهرى الحراب لا ينبسون بكلمة واحدة كأن على رءوسهم الطير .

كانوا يفكرون تفكيرا مضطربا فى امر هذه الحرب . فكم من معـارك دموية خاضوها . وكم من كتل متراصة من الفـلاحين اكتسـحوها امامهم . وكم من حصـون غنمـوها . وكم من نصر احرزوه . ثم خيل اليهم الآن كأنما استحال هذا المجد خزيا وعارا .

كانوا يرون الجلاد يهبط ويرتقى منصة المقصلة .

وفجاة قطع هذا السكون دقات طبول خافتة . وازدادت نغمات الموت فى آذانهم ارتفاعا . وفتحت الصفوف . وتقدم موكب فى هذا الميدان واتجه الى المقصلة .

جاء حاملو الطبـول اولا . وتلتهم ثلة من الجنـود بحراب منكسة .

وفى أثر هؤلاء شرذمة اخرى بسيوف مشهرة . ثم جاء المحكوم عليه .. جوفان .

تقدم الى الامام بخطوات ثابتة . ولم تكن حول يديه او قدميه قيود . وكان يرتدى سترته العسكرية ويحمل سيفه . وسـارت خلفه كتيبة اخرى من الجنود .

كانت تضىء وجهه ابتسامة مشرقة ، ولا شىء فى الدنيا اسمى ولا أبعث على التأثر من هذه الابتسامة .

ولـما وصل الى المـكان الرهيب اتجه بنظره الى قمة الحصن وازدرى أن ينظر الى المقصلة . فقد كان يعرف أن سيموردان لن يفرط فى واجبه الصارم نحو الاشراف على تنفيذ الاعدام . ورأى سيموردان فوق القمة .

كان سيموردان ممتقع الوجه ، بارد الأطراف . على انه بقى جامدا فى مكانه حينما رأى جوفان ، ولم يختلج فى كيانه عضو ما .

تقدم جوفان الى المقصلة واخذ يرتقى منصتها . ولـما استوى فوقها تبعه الضابط الذى يقود الجنود . حل جوفان سيفه واعطاه للضابط . أزال ربطه عنقه وناولها الى الجلاد .

بدا للناظرين كطيف من الاطياف . ولم يروه اصبح وجها ولا أبهى طلعة .. وكانت خصلات شعره الاشقر تتموج فى الهواء . وجيده ناصع البياض . ووقف فوق المنصة ساميا حتى فى مكان العقاب . وقف منتصب القامة شامخا هادئا . واحاطت الشمس وجهه بهالة من نور .

تقدم الجلاد بحبل لتقييد يديه .
فى هذه اللحظة .. حينما رأى الجنـود قائدهم الشاب قرب سكين المقصلة – لم يقووا على كبح عواطفهم . وذابت قلوب هؤلاء المحاربين الصارمين .
تعالى صوت مرتفع . هو بكاء الجيش فى عبرة واحدة ممتزجة .
دوت صيحة مجلجلة : « الرحمة ! . الرحمة ! » .
ركع بعضهم على الأرض .. وألقى آخرون بنادقهم وبسطوا أيديهم نحو القمة التى جلس فوقها سيموردان .. واشار جندى بيده الى المقصلة وصرخ : اذا اردتم بديلا فخذوا راسى !
ردد الجميع نداءه فى جنون .. ولو راتهم أسود لرقت قلوبها او ارتاعت .. فان دموع الجنود شيء مروع .
تردد الجلاد .. ولم يدر ماذا يفعل .
ثم صدر من فوق الحصن صوت سريع خافت لـكنه صارم ، نفذ الى اسماع الجميع .. قائلا : لينفذ القانون !
عرف الجميع هذا الصوت الصارم ، فاه سيموردان بالـكلمة الفاصلة ، وسرت فى صفوف الجيش رعدة .
طرح الجلاد تردده .. ودنا من جوفان ممسكا الحبل .
فقال جوفان : انتظر .
التفت جوفان الى ناحية سيموردان .. ولوح له بيده اليمنى الطليقة مودعا ، ثم ترك الجلاد يقيده .
ولما تم تقييده ، قال للجلاد مرة ثانية : لحظة واحدة :
ثم هتف بأعلى صوته : تحيا الجمهورية !
مدده الجلاد فوق المنصة .. ووضع راسه تحت السـكين .. وازاح برفق شعره جانبا ، ثم ضغط على اللولب ، فهوت السكين بسرعة ، وسمعت ضربة مخيفة مروعة .
وفى نفس الوقت جاوب ضربة السكين صوت عيار نارى .. فقد تناول سيموردان احدى الطبنجتين ، وفيما كان راس جوفان ينحـدر الى السلة الموضوعة اسـفل المقصلة ، اطلق سيموردان رصاصة على قلبه ، فتفجر الدم من فمه ، وهوى جثة هامدة .
ورفرفت هاتان الروحان الشقيقتان متعانقتين .. احداهمـا مشرقة ساطعة ، والثانية مظلمة قاتمة .

« تمت »

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية : ٨٠/٥٧٠٠
الترقيم الدولى : ISBN ٩٧٧ – ٧٣١ – ٨٥ – ٨

٢٠ قرشا

هذه الرواية

ولد فكتور هوجو اديب فرنسا الكبير عام ١٨٠٢ فى مدينة بيزانسون باقليم اللورين فى اسرة عريقة ، وتلقى تعليمه فى احد الاديرة بباريس . وقد فاز وهو بعد فى السابعة عشرة بثلاث جوائز فى مسابقة للشعر ، وكان اول ما نشر له كتاب يضم قصائد غنائية . وتعاقبت بعد ذلك مؤلفاته فى الشعر والرواية والدراما حتى توطد مركزه كزعيم للحركة الروائية فى الادب الفرنسى . ومن اشهر رواياته « سيدة باريس » و « آخر يوم فى حياة المحكوم عليه بالاعدام » ، ومن اشهر مسرحياته « مارى ديلورم » و « لوكريشيا بورجيا » . وقد تعرض هوجو للنفى فى عهد نابليون الثالث ، وفى هذه الفترة الف عديد من الروايات اشهرها رواية « البؤساء » وكانت فى عشرة اجزاء ، ثم « الرجل الضاحك » . ولم ينقطع عن التاليف رغم اشتراكه فى الانشطة السياسية التى ابعدته عن فرنسا حينا آخر اصدر فيه هذه الرواية ، وهى احدى الروائع تجرى احداثها الحافلة بالبطولات والمغامرات والمؤامرات فى ظل الثورة الفرنسية بعد اربع سنوات من قيامها ، وقد حشد فيها المؤلف القدير كثيرا من المواقف الانسانية الرائعة والمآزق التى يشتد فيها الصراع بين العاطفة والعقل وبين المبادىء والقيم مما يجعل الرواية اقرب الى الدراما ملحمية لا تتفتق عن مثلها سوى عبقرية فكتور هوجو .